1978 No 56

فهـــرس الـعـــدد

لسنـــــا يتـــامى التـــاريـــخ ! (1)

- الامة الجزائرية انشات وحدتها الحالية قبل قرون من الوحدة الالمانيــة ، والفرنسية بالنسبة لبعض مقاطعات هـــذه الاخيرة .
- الالفاظ ، والتسميات ليست ذات قيمة شكلية فحسب ، وانما تـدل على مبادىء ، ومفاهيـم ووقائـع .

حديـث للسيـد
مولود قاســم نايت بلقاســم
الوزير لـدى رئاسـة الجمهورية
المكلف بالشـؤون الدينيـة



على اثـر انعقاد حلقـة دراسية حـول « المصادر المعاصرة لتاريخ الجزائر » بمقر المركز الوطني للدراسات التاريخية يومى 3 و 4 مارس 1978 ، تفضل السيد مولود قـاسم نـايت بلقاسم ، الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشؤون الدينية ، والذى تولى افتتاح الدورة فادلى لنا ـ بطلب منا ـ بالحديث التالى :

سؤال : سيدى الوزير ، لقد توليتم مؤخرا رئاسة الحلقة الدراسية التى نظمها المركز الوطنى للدراسات التاريخية والمديرية الوطنية للوثائق حول البحث التاريخى ، فهل لكم ـ وقد اختتمت أشغال هذه الحلقة ـ أن تبينوا لنا لماذا كانت الوثيقة والوثائق المحفوظة من الاهمية بمكان للمؤرخ الجزائرى الذى يحدوه فى أعماله حرص شديد على كتابة تاريخ وطنى حقيقى ؟

---

(1) ترجمة حديث نشرته جريدة المجاهد اليومية بتاريخ 13 مارس 1978 .

جواب : يجب القول ، أولا ، إن الوثائق المتعلقة بالتاريخ أو ما يقوم مقامها ، باعتبارها أدوات رئيسية ، وباعتبار التاريخ يمثل ما تعارف الناس على تسميته بذاكرة الامم ، تعد ذات أهمية رئيسية . ولا تقتصر هذه الوثائق ـ حسب ما يراه كبار الاخصائيين ـ على الوثائق المخطوطة أو المطبوعة فحسب ، بل تشمل كل الآثار الدالة على الماضي .

فأي اكتشاف فى متيجة مثلا لاداة فلاحية كمحراث بدائى ، أو نظام للري ، مهما كان باليا ، يرجع تاريخه الى ما قبل سنة 1830 ، قد يقوم برهانا قاطعا لدحض كل حجة أو احصاء أيا كان نوعهما مما يرمى من ورائه الاستعمار الى اثبات أن متيجة كانت عبارة عن مستنقع واسع ، وأن المعمرين، أو بالاصح : المخربين (1) الفرنسيين هم الذين حولوها الى ما هي عليه اليوم .

ويجب التأكيد بخصوص الوثائق المكتوبة ـ وهذا أمر بديهى بالنسبة الى تاريخ أي بلد من البلدان ، وتاريخ بلدنا بوجه خاص ـ أن اقل قطعة ورق ، وأقل قصاصة صحيفة من صحف الماضى ، من تلك الصحف ، أو بالاحرى : الصحائف أو الخفائف التى كانت تصدر مثلا فى كثير من جهات بلادنا ابان العهد الاستعمارى ، وأية رسالة عائلية يعثر عليها فى سقف أو فى كهف « بلدية ممتزجة »(2) من ذلك العهد يمكن أن تكون ذات أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة الى مؤرخ اليوم ، أو باحث المستقبل . انها كلها مصادر لاستقاء معلومات عن أحداث وقعت قد لا نجدها لا فى كتب التاريخ المقررة ولا حتى فى الموسوعات .

وعلى سبيل المثل ، الذى ربما كان من قبيل ما يتندر به ، ولكنه مما يحز فى النفوس أيضا ، أننا سنحاول عبثا لو بحثنا فى كتب التاريخ المقررة أو فى أي ضرب من ضروب الكتب الاخرى عن القرار السيىء الشنيع الذكر الذى اتخذته « المجالس العامة الفرنسية » بالجزائر فى الاربعينات بشأن تعليم اللغة العربية ، على اثر المشروع الذى لا يقل عنه شناعة مما كان يعرف « بالقانون الاساسى للجزائر » سنة 1947 .

وينص القرار حرفيا :

«وحيث ان اللغة العربية ذات اشكال ثلاثة :

1) اللغة الفصيحة الكلاسيكية ، وهي ميتة ،

---

(1) نوافق استاذنا الكبير الدكتور عثمان امين فى تصحيح تسمية الاستعمار بالاستخراب ، وهي ترجمة أدق وأوفق .

(2) Commune mixte.

(2) اللغة الفصيحة الحديثة ، ولكنها لا توجد الا فى الشرق ، وبالتالى فهى غير معروفة فى الجـزائر .

3) اللغة الدارجة ، وهي غـير صالحة لتكون لغة رسميـــة ، ولا أداة للتعبـير عن المعـارف الحديثـــة .

توصى المجالس العامة الولاية العامة بعدم تعليم اللغة العربية إصلا ، بينما يمكن المرء أن يعثر على هذا التصريح فى أية صحيفة من صحف ذلك العهد . وهنا تتجلى أهمية هـذا النوع من الوثائق وغيرها من المستندات الاخرى الكثيرة . والواقع ان كل ما له دلالـة ما بالنسبة الى الماضى البعيد أو القريب يمكن تسميته بالارشيف سواء كان موجودا داخل التراب الوطنى أم خارجه .

سؤال : وبصدد هذه الوثائق الجزائرية بالذات ، أو التى لها صلة بتاريخ شعبنا ، والتى تتوزعها مكتبات عبر كثير من البلدان الاجنبية ، هل لكم أن تحدثونا عما اذا كانت هناك مبادرات جدية قد اتخذت لاسترجاعها أو لاستغلالها فى عين المكان ؟

جواب : فى هذا الباب بالذات ، وهو ابعد ما يكون عن أن يوصد ، لم نسترجع من وثائقنا الموجودة خارج البلاد ، رغم المساعى المتكررة ، الا جزءا ضئيلا مما لـه دلالة سياسية ، أو ديبلوماسية ، أو تاريخية غير ذات شان كبير .

اما مراسلات الدولة الجزائرية مع مجموع العالم ، والنسخ الاصلية للمعاهدات التى ابرمتها ابتداء من سنة 1534 حتى سنة 1847 مع البلدان الاخرى ، من فرنسا الى الولايات المتحدة ، فلم نسترجعها بعد ، وما تزال مخزونة فى كهوف مكتبات باريس ، وايكس انبروفانس Aix-en-Provence واماكن اخرى غيرهما . وقـد نقلـــت الادارة الاستعمارية هذه الوثائق فى ايام جويلية المحمومة من سنة 1962 .

وثمة رصيد آخـر ذو اهمية قصوى قـد شرعت الجزائر منذ بضـع سنوات فى استغلاله . ويتمثل هذا الرصيد فى وثائقنا الموجودة بمدينة اسطنبول . وقد نتجت هذه الفجوة بصورة أساسية عـن افتقارنا الى مؤرخين يحسنون اللغـة التركية ، على أن الكلام التركى لذلك العهد ، ويدعى « العثمانى » ، كان نصفه على الاقل يتكون مـن كلمـات عـربية .

ويمكن القول ، فيما يتعلق بتاريخ الجزائر الذى له صلة بهذه الوثائق العثمانية ، إنه ، علاوة على مبادرتين خصوصيتين ، احداهما هي التى قام بها الاستاذ عبد القادر محداد ، الذى نعلم انـه يجرى ابحاثا منذ بضع سنوات (ما تـزال غير مطبوعة) ، والثانية هي التى قام بها الدكتور عبد الجليل التميمى ، الذى نشر او ترجم ، استنادا الى منشورات تركية ، بعض وثائـق بالغـة الاهمية (يمكن أن نـذكر منها الكتابين

الوحيدين الآتيين : كتاب الدكتور التميمي الذى هو حاليا تحت الطبع حول مقاومة القطاع القسنطيني للاحتلال الاستعمارى بقيادة احمد باي من سنة 1830 الى سنة 1848 ، واطروحة الاستاذ ارجوماند كوران لنيل درجة الدكتوراة حول « موقف الباب العالى من غزو فرنسا للجزائر سنة 1830 » ، اقول انه الى جانب هاتين المبادرتين اذن ، هناك مبادرة اخرى هي أحدثها ، الا وهي قيام الرئاسة بايفاد المؤرخ أحمد توفيق المدني الى تركيا حيث يجرى أبحاثا بفضل أصدقاء له من الاتراك ، والذى جلب معه اكثر من مائة وثيقة يقوم بترجمتها حاليا أستاذ تركى كان سابقا بالمعهد الاسلامى فى تيزى وزو ، الحق أخيرا بالمركز الوطنى للدراسات التاريخية ·

ووجه المأساة فى المسالة أن هذه الوثائق لم يجر ترتيبها أبدا فى اسطنبول ، بل بقيت ـ فيما قيل لنا من عدة جهات ـ مكدسة ، مشتتة ، مغبرة ، مصفرة ، بفعل الزمن والرطوبة فى الكهوف ، ومن ثم ضرورة التعجيل بتجنيد جميع الوسائل من أجل استغلالها السريع ، ووجوب أن يكون المؤرخ الذى يتناول فى أعماله تاريخ الجزائر من القرن السادس عشر الى يومنا هذا عارفا باللغة التركية ، زيادة على لغات اجنبية أخرى ·

وبالاضافة الى هذه الوثائق المطبوعة أو المخطوطة ، أود أن أشير الى انه ما تزال بحوزة فرنسا وثائق جزائرية من نوع آخر ، وذات قيمة اخرى ، مثل مكتبة الامير عبد القادر وغيرها من المكتبات الاخرى ، العمومية منها والخصوصية ، ومثل « المدفعين الرائعين الشهيرين المصنوعين من البرونز » واللذين يرجع تاريخهما الى القرن السادس عشر ، ذانك المدفعان اللذان اخذهما معه الفلاماندى « سيمون دانسر » Simon Danser الذى تلقب باسم مراد رئيس (3) الذى بعد أن غدا جزائريا ، راح فاستوطن بلدا ثانيا ، وبالذات فرنسا ، حاملا معه تينكم القطعتين من السلاح اللتين ذكرهما المؤرخ الفرنسى « هنرى غارو » Henri Garrot فى كتابه « تاريخ الجزائر العام » ، وسلمهما سنة 1608 الى دوق دى غيز Duc de Guise أمير البحر وقائد أسطول الشرق ابان حكم الملك لويس الثالث عشر · ومن بين الاسلحة والروائع الاخرى التى ترجع الى مختلف العصور نذكر منها المدافع السبعمائة التى كانت فى الاصل فرنسية وغنمها الجزائريون من فشل غارة الدوق دى بوفور Duc de Beaufort فى عهد لويس الرابع عشر على جيجل يوم 23 يوليو 1664 ، وأخرى غنموها من فشل

(3) والذى أعطى اسمه ـ محرفا ـ لحي معروف بالعاصمة هو بئر مندرايس ·

غــارة شــارل الخــامس (شارلكان) عــلى الجــزائر سنــة 1541 ، والتى كــان هذا الاخير قد غنمها بدوره من جيوش فرانسوى الاول ملك فرنسا فى معركة بافيا Pavie التى اخذ فيها هذا الاخير اسيرا ، يوم 25 فبراير 1552 . وكذلك المدافع الثلاثة المصنوعة فى تلمسان سنة 1833 والتى أخذها بيجو من الامير عبد القادر . وربما كانت هذه الاخيرة ما تزال موجودة فى الانفليد Les Invalides فى باريس .

ســؤال : سيدى الوزير ، اذا كــان استرداد المستندات التاريخية يعــد عمليــة أساسية ، فان استغلالها لاغراض كتابة التاريخ كتابة أمينة قدر الامكان يظل – كما يبدو لنا – هو الهدف الرئيسى .

جواب : أجل ، ان عملية الاسترداد ليست غاية لذاتها . لان هذه الاشياء التى ذكرناها وغيرها وان كانت ذات أهمية تاريخية بالغة الا أنها تبقى أولا من نوع قطع المتاحف، بينما الوثائق والمستندات المكتوبة هي من النوع الآخر الذى يتطلب أن يستغل، الى أقصى حد، وأن يدرس دراسة منهجية ، دقيقة ومنظمة ، وأن تكون تلك الدراسة ، على الخصوص ، بروحنا وعقلنا معا ، وبرغبة قوية فى تصحيح الوقائع ، وتسجيل نقاط الضعف فى تاريخنا ، لكن مع القيام كذلك بابراز الامجاد وعهود العز ، ذلك لان الاستعمار قــد بالغ فى تزوير الوقائع والاحداث التاريخية قاصدا بذلك الى تعقيدنا ، اي جعلنا نشعر بعقد النقص ، والى اظهارنا بمظهر يتــامى التاريخ ، دون ماض ، او وجــود كدولة وكامة ، كانت لها مساهمتها فى الحضارة الانسانية .

لذلك ، كان لابد من الاسراع فى استكمال عملية استرجاع كل هذه الآثار الدالة على ماضينا ، سواء المكتوبة منها أو المادية ، وابراز هذه الموسوعة التاريخية للجزائر تدريجيا وبنظام وترتيب ، نسير فيها خطوة خطوة ، لكن بوتيرة فيها شيء من السرعة وتجمع بين الكيف والكــم .

ســؤال : لقد اثرتم فى الكلمة التى القيتموها فى جلسة افتتاح الحلقة الدراسية حول الوثائق والتاريخ قضية تبدو لنا – لاهميتها – جديرة بأن تحظى بمزيد مــن التفاصيل ، الا وهي استعمال رجــل الشارع والمؤرخ نفســـه ، لــلاسف الشــديد ، مصطلحات مغلوطة ، فماذا فى الامر بالضبط ؟

جــواب : وهنا أيضا يتعين العمــل بسرعة على اجراء مراجعة شــاملة لبعض المصطلحات التى تبناها الكثير منا حتى الآن ، وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الحديث ، اي التاريخ الذى يتناول الحقبة الممتدة من العصر الموسوم بالعهد التركى (والذى بدأ

بوصول عروج وخير الدين بربروس وأخويهما أسحاق والياس الى بجاية وجيجل سنة 1510 ، استجابة لنداء البجائيين الذين كانوا يواجهون حملات مطاردة يمارسها الاسبان ضد الاندلسيين الملتجئين الى بلدان المغرب ، والتى كانت فى الوقت نفسه مدا صليبيا) الى العصر الحاضر . ومن المفيد أن نتحدث عن هذه الحقبة بالذات لابراز خطا العبارة القائلة « بأن الجزائر نالت استقلالها فى سنة 1962 » ، وعلينا أن نذكر اذن بأن اسبانيا قد انقضت على بلدان شمال افريقيا بعد خمس سنوات فقط من سقوط غرناطة وقيام فردناند الكاثوليكى ، الحفيد المباشر لشارلكان[1] ، وزوجته ايسابيلا الكاثوليكية ، بطرد مسلمى الاندلس ، فاحتلت على التوالى سبتة ومليلة فى المغرب عام 1497 ، وما تزال تحتلهما حتى الآن ، والمرسى الكبير فى سنة 1505 ، بقيادة الكاردينال خيمنيث Gimenez وبيدرو دى نافارو Pedro de Navarro . ووهران فى سنة 1509 ، وتونس ثم طرابلس سنة 1510 . وقام البرتغال من جهته بالاستيلاء على كامل الساحل المغربى : اغادير ، وسافى ، وأزمور ، وكل منطقة الدوكالة فى سنة 1507 .

ولم يطرد الاسبان من بجاية ومستغانم على التوالى الا فى سنة 1555 على يدى صالح الرئيس ، وفى سنة 1558 على يدى حسن بن خير الدين ، ولم تحرر وهران نهائيا الا فى سنة 1792 على يدى محمد بن عثمان الكبير ، وتونس سنة 1570 على يد على باشا الجزائرى الذى طردهم منها هم وعميلهم حميده الحفصى آخر ملوك الحفصيين .

وقد أسس الدولة الجزائرية الحديثة عقب الغزو الاسبانى خير الدين المدعو بربروس ، وذلك فى سنة 1519 ، وأطلق عليها اسم « دولة الجزائريين » . وامتدت هذه الدولة فيما بعد الى عين صالح وتمنراست ، وقد استمدت المدينة الاولى اسمها من زيارة صالح رئيس لها سنة 1555 . ويعنى هذا - بين قوسين - ان الامة الجزائرية أنشأت وحدة ضمن حدودها الحالية بقرون قبل الوحدة الالمانية ، والوحدة الايطالية ، بل وحتى الفرنسية بالنسبة الى بعض مقاطعاتها .

وبهذه الصفة وبهذا الاسم « دولة الجزائريين » تم ابرام المعاهدة الاولى بين الجزائر وفرنسا ، ووقعها فى سنة 1534 مفوض خير الدين باسم هذه الدولة من جهة ، وسليمان القانونى شخصيا باسم الخلافة العثمانية من ناحية ثانية ، وفرانسوا الاول نفسه باسم فرنسا من جهة ثالثة . ووقعت الجزائر هذه المعاهدة الثلاثية المدعوة بمعاهدة شاتلرو Chatellerault لا باعتبارها مقاطعة من مقاطعات

(1) من جهة الام .

الامبراطورية العثمانية، اذ لــو كانت كذلك ، مــا كانت لتحتــل مكــانها على مــائدة المفاوضات ـ بل باعتبارها طــرفا ثالثا مستقلا ودولة تتمتع بالسيادة الكاملة عــلى قدم المساواة مع امبراطوريتين من اكبر امبراطوريات ذلك العصر · وبعد سنة واحدة نزل سفير فرنسا الاول جان لافورى Jean Laforêt بالجزائر العاصمة ، ولم يتوجه الى القسطنطينية الا بعد ذلك · وعلى هذا ، فلو كانت الجزائر مجرد « ايالة » أو « مقاطعة » عثمانية لكان جان لافورى Jean Laforêt قد بدا بالقسطنطينية ، ولما كان ليقدم الى الجزائر « مقاطعتها ! » الا بعد ذلك ، كما هو العرف الدولى فى الديبلوماسية بالامس واليوم ·

وبعد هذه المعاهدة ، وقعت الدولة الجزائرية مع فرنسا فيما بين 1534 و 1847 (الوثيقة المشؤومة بين عبد القادر ودوق دومال Duc d'Aumale) 64 اتفاقية ومعاهدة واتفاقية ، من بينها الوثيقة التى اعترفت بموجبها الدولة الجزائرية باول حكــومة منبثقة عن الثورة الفرنسية فى 20 مارس 1793 ، والوثيقة التى منح داي الجزائر حسن بمقتضاها فرنسا قرضا ماليا قدر مبلغه (راس المال والفوائد) المؤرخ الالمانى جورى سيميونوف Juri Semionov فى كتابــه « ازدهار وانهيار الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية » كما قدره مؤخرا الكاتب الفرنسى « ا· ديفور A. Dufour فى عدد افريل 1975 من مجلة « فرنسا والبلدان العربية » باربعين (40) مليار فرنك قديم ·(1)

وبالنظر الى هذه الوقائع كلها ، لا يسعنا الا ان نستنتج بأن التاريخ قد زور بفعل منا وبفعل من غيرنا حين نتحدث عن الجزائر باعتبارها دولــة تــركية تحت الحــكم التركى · ومن ثم تتجلى اهمية هذه المصطلحات ، ذلك لان الالفاظ والتسميات ليســت ذات قيمة شكلية فحسب ، وانما تدل على مبادىء ، ومفاهيم ، ووقائع · وليس مــن نافلة القول ان نذكر بعض الامثلة للتنديد بهذه الاخطاء :

مــن ذلك ان البرنامج الدراسى الاول الذى سطــر للتعليم الثانوى فى سنــة 1962/1963 ، اي سطر منا وبايدينا ، كان يتضمن ، لتعيين وتحديد اهم عصور التاريخ الجزائرى ، هذه العناوين الآتية :

1) العصــــر الــرومــانــى ·
2) الغــــزو العـــربــى ·
3) السيطـــرة التـــركيـة ·
4) وصــــول الفــرنسيين ·

(1) ولم يسدد منه حتى اليوم فرنك واحد !

فهو العصر بالنسبة الى البعض وهو الغزو او الحكم والسيطرة بالنسبة الى الآخرين ، اما بالنسبة الى الاواخر فهو الوصول ! وهذا ما لا يحتاج الى تعليق ٠

واذا كانت الدولة الجزائرية تبدأ من ماسينسا ويوغرطا دون انقطاع ، حتى طيلة العصور الكبرى للامويين ، والعباسيين ، والموحدين ، حيث كانت هناك كيانات تشكل مجموعات ، وحيث كان مفهوم الدولة بالمعنى الحديث لا وجود له بعد ، وحيث كانت الوصاية مجرد وصاية روحية حتى مع الدولة العثمانية ، فان الدولة الجزائرية فى العصر الحديث كان لها اسمها الرسمى وهو « دولة الجزائريين » (1) ٠ اما سلطة الخلافة العثمانية فانها كانت ذات سمة روحية لا غير ، على غرار مـا كان يمـارسه الفاتيكان من سلطة على أوروبا المسيحية فى ذلك العصر ، بل اقل مباشرة منها ٠

فمن الواجب اذن ـ حين نتحدث عن الجزائر ونشير الى حدث 1962 ـ أن نقول « استرجاع الاستقلال » ، « استعادة الاستقلال » ، أو « التحرير » ٠

وهناك مثال اخر هو تعبير « الدولة الفتية » الذى يحمل فى ذهن وفم من يطلقونه من الاوروبيين على بلـدان العـالم الثالث معنى قادحا(2) تحقيريا لهذه البلـدان يعنى « فسيفساء » من قبائل لم تعرف ابدا كيانا موحدا وقد برزت لاول مرة على سطح هذا العالم ، اخذة مكانها الى جنب امم كانها كانت موجودة دائما ، وكانت ازلية أبـدية بالمعنى الفلسفى للكلمة ، اي ليست لها بداية ولا نهاية ، مما قد يقود الى تصنيف الامم الى : امم تاريخية ساهمت فى الحضارة الانسانية ، وامم أخرى لم تكد تخرج مـــن العـــدم !

ونفس الاستدلال ينطبق على مفهوم امم تقول انها كانت سيدة نفسها ابدا ومستقلة دائما ، بينما لم يكن من امر امم أخرى سوى أنها حصلت على استقلالها ، اي استقلت لاول مرة فى التاريخ ! من ذلك اننا نسمع ونقرأ عندنا نحن انفسنا ، ما نقوله ونكتبه عن انفسنا ايضا عبارة « استقلال الجزائر » ٠ ومن هذا القبيل ايضا ما صرح بـــه رئيس الدولة الفرنسية حاليا لدى زيارته لبلادنا حيث قال فـور نزوله بمطار الدار البيضاء : « ان فرنسا التاريخية لتحيى الجزائر المستقلة » !

وربما كان من اللائق ان ندرج تحت هذا الفصل ذاته ما ورثناه من الحالة المدنية عن البلديات المتزجة التى تضع الاسم العائلى فى مكان سابق لـلاسم الشخصى ،

---

(1) الوثائـق الفـرنسية : "L'Etat des Algériens"

(2) قــادح : péjoratif ، عكس مادح laudatif

هذا تفسير ما الححت عليه أثناء الحلقة الدراسية مـن ضرورة جمـع الوثائق والمستندات من أجل كتابة تاريخنا من جديد بعقلنا بطريقة منهجية ، ومنظمة ، حقـا ، بتلك « ألنزاهة العلمية » التى نسمع عنها كثيرا ويمدحونها لنا فى كـل مكان ٠٠٠ ولكن فيما يخص تاريخنا بالذات ، ذلك التاريخ الذى طالما كان موضوع تزوير ، بـل وانكار ونزاع ايضا ، من قبل البعض ، لابد أن نزيد بعدا آخر ، الى العقل ، والمنهجية ، والنزاهة العلمية ، الا وهو الروح ! فعلينا أن نكتب تاريخنا بفكر علمى ، حقا ، ولكن ايضا بروحنا ، تماما كما تفعل جميع الامم !

واختم حديثى هذا بكلمة اقتبستها من رجـل ليس بالحالم المتهوس ، ولا بالمهرج المتحمس ، انه الفيلسوف الالمانى الشهير فيخته ، الذى قال فى مطلع القرن الماضى ، وهو يوصى الالمان بكتابة او اعادة كتابة تاريخهم ، ما يلى :

« وفى هذا السياق الخاص (سياق أستمرارية الامـة) يتحتـم علينا أن نكتب تاريخ أمتنا ، وأن نجعله تاريخا يلهب ويبعث فينا الحماس ، تاريخا يدفع بنـــا الى الامام ، تاريخا يكون لنا بمثابة الانجيل ، ويقرأ بنفس الحب ، والتقديس ، والاجلال! وذلك تشــريفا لارواح أجدادنا،وحضا لانفسنا على التأسى بهـــم ، لنكـون جديرين بالانتساب اليهم ، ولكي نترك شيئا للاجيال المقبلة ، ونخلد شخصيتنا وإنيتنا » (5) ٠

(5) غوتليب فيخته : « نداء الى الامة الالمانية » ٠

الفتوحات الاسلامية الاولى وآثارها الاقتصادية في الشرق الاسلامي والغرب المسيحي

بقلم موريس لومبارد
ترجمة اسماعيل العربي

تعتبر العصور الوسطى العليا ـ ابتداء من بناء القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي حتى اتساع نطاق الحروب الصليبية منذ القرن الحادي عشر ـ تعتبر هذه الفترة شرقية في تاريخ الانسانية ·

وهذه الملاحظة تصدق خصوصا على القرون الثلاثة التي تمتد من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الحادي عشر والتي تمثل قمة ما حققه العالم الاسلامي . فان المراكز الموجهة للحياة الاقتصادية والثقافية في

(I) وضع أستاذي الراحل والماسوف عليه ، موريس لومبارد ، نصوص كتابه « الاسلام في مجده الاول » ولكن المنية عاجلته فلم يتمكن من ترتيبها ، فقام عدد من اساتذة جامعة السوربون والعلماء من اعضاء المركز القومي للبحوث العلمية (CNRS) وفي مقدمتهم العلامة فرناند بروديل ، بجمع هذه المواد وترتيبها في سفر متوسط الحجم ونشر الكتاب الناشر الفرنسي « فلاماريون » · وقد قمت بترجمة هذا الكتاب ووضع هوامشه بناء على تصريح منحه الناشر للشركة الوطنية للنشر والتوزيع التي ستتولى نشره · ويسرني ان اقدم هذه الباكورة التي تمثل الفصل الاول واضعها في متناول قراء مجلة « الاصالة » الغراء ـ المترجم ·

العالم فى تلك الفترة ، كانت كلها تقع فى الشرق الاوسط الاسلامى · واما الغـرب المسيحى ، فانه لم يكن يمثل الا فراغا ، حيث كان النشاط الاقتصادى والثقافى قـد انحسر عنه منذ الانحطاط والتدهور الذى أصاب الامبراطورية الرومانية وغـــزو البـرابر (2) لارضـــه ·

ولكن فهم اقتصاد العالم الاسلامى بعد ما بلغ اوج نشاطه ، يتطلب نظـــرة الى الوراء ، وخصوصا ، الى عهد الفتوحات الاسلامية الاولى (التى تمتد فترتها بـين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن الميلادى) · فان هذه هي الفترة التى تشكلت فيها معالم العالم الاسلامى الاساسية ·

عهـــد الفتــوحـات :

قام بالفتوحات الاسلامية الاولى عرب الجزيرة من البدو الرحل وغيرهم ، فكانت هذه هي القوة العسكرية الاولى للاسلام بقيادة قريش مكـة الذين هم من الحضـر ، يمارسون التجارة ويجهزون القوافل · وفيما عدا الصحراء ومناطق الرعي فى شبة الجزيرة العربية ، اتجه الفتح العربى منذ البداية الى بلاد الهلال الخصيب ، بـلاد ما بين النهرين وسوريا ومصـر ·

ولكنه الى جانب هذا العنصر العربى « الاصلى » ، فتح جيش الاسلام صفـوفه للمجندين من ابناء البلاد المفتوحة · وهذه العناصر المحلية ستوسع نطاق حـركة الفتح الاصلية · وكذلك اتجه الايرانيون الى فتح آسيا الوسطى ، بينما اتجهت العناصر السورية المصريـة الى فتـــح افريقيا الشماليـة ، ليقـوم البربر بدورهم « فى مرحلـــة تالية » بفتح الاندلس وجزيرة صقلية ·

وهؤلاء الفاتحون العرب ، أو غير العرب ، سوف لا يشكلون الا اقلية فى البلدان التى اخضعوها · وقد كان دورهم التاريخى هو تكوين منطقة دينية سياسية واسعـة وتوحيد بلاد شعوب مختلفة فى مملكة كبيرة لينصهروا بعد ذلك فى الشعوب القديمة

---

(2) نطلق كلمـة « البرابرة » فى هذا الكتاب عـلى العصابات المسلحة (القـوط والوندال والبورجند والسويف والافار الخ ·) التى قامت بغزو الامبراطورية الرومانية خلال الفترة التى تمتد بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادى ، واسقطوا اباطرة الغرب وشكلوا دويلات هنا وهناك ، وبذلك نميز هؤلاء الاقوام عن البربر ، سكـــان افريقية الشمالية ، وذلك على الرغم من ان هذه التفرقة لا يوجد ما يبررها من حيـث الاشتقــاق ــ المتــرجم ·

التى اخضعوها · وبذلك استمرت الجماعات والشعوب الشرقية القديمة فى نشاطها التقليدى بدون انقطاع فى ظل الاسلام وتحت لواء الخليفة · واما العرب الذين خرجوا من الصحراء فسيستقرون فى العراق وايران وفى مصر ، وهي بلاد ذات واحات ومدن كبيرة عرف سكانها بتقاليد تاريخية قديمة ، وتمتد جذور الحضارة فيها الى اعماق التاريخ · فان بلاد الشرق قد انتجت حضارة من اقدم حضارات العالم · والعنصر العربى « الاصلى » الذى يشكل الموجة الاولى للفاتحين ، انما خرج من الصحراء ، وذلك على عكس العناصر التى خرجت من المناطق الخلفية ذات الغابات والاراضى الزراعية « أوروبا الوسطى » ، أو ذات المراعى « آسيا » ، ممن كانوا يشكلون الاحتياطى البشري للبرابرة الغزاة الذين استقروا فى أمواج متعاقبة فى أرياف الغرب ذى الغابات الواسعة والضعيف السكان · وفى هذه الحالة « حالة العرب » ، كان الفاتحون لا ينصهرون بسرعة فى جموع سكان الحواضر ذوى الحضارات المتفوقة · وكذلك كان العرب ينزلون فى المدن ، أو فى ضواحى المدن التى سرعان ما تشكل نواة لمدن أخرى ، مثل الكوفة والفوسطاط والقيروان · وهذه الظاهرة تفسرها ضرورة المحافظة على نمط الحياة العربية بميل سكان الحواضر العرب الى التجارة وما يشعر به البدوى من اغراء المدينة ، وكل ذلك مع الكره الشديد للاعمال الزراعية وللاستقرار فى المناطق الريفية · فان جميع عناصر العرب الفاتحين كانت تواقة الى الاستمتاع بما توفره حياة المدن من المسرات . ولكن العناصر التى لم تكن قابلة للانصهار ، سرعان ما تدفع نحو الصحراء ومناطق الرعي · واحسن مثال لهذه العناصر ، هم بنو هلال الذين سيتسللون من صحراء الجزيرة العربية الى سيناء ، فى المرحلة الاولى ، ثم من سيناء الى برقة وبقية بلدان المغرب فى المرحلة التالية ·

لقد احتفظت شعوب الشرق القديمة : الارمن والفرس والمصريون بكيانها تحت الفتح الاسلامى · فماذا كان دور الفاتحين تجاه هذه الشعوب ، يا ترى ؟

من الناحية السياسية كانت نتيجة الفتح ، قيام دولة اسلامية فى رقعة فسيحة من الارض كان الخليفة رمزا لها · ومن الناحية الدينية كان من نتائج الفتح ، نشر الاسلام · ذلك الدين الذى يقوم على القرآن الذى أوحى به الى محمد (ص) · ومن الناحية اللغوية ، ادى الفتح الى اتساع انتشار اللغة العربية · وأخيرا ، فقد نجم عن الفتح االسلامى ، من الناحية الاقتصادية اتخاذ أراضى مختلفة فى تكتل اقتصادى كبير · على ان انتهاء الفتوحات كان ايذانا بتقلص العنصر العربى واندماجه فى

الشعـوب القديمة : الايرانيين والساميين والمصريين والبربر والاندلسيين · وهذه أيضا هي الحالة فى المرحلة الثانية « مـن الفتـح » · وقد لاحظ المؤرخون خصوصا ضآلة القوات التى ساهمت بها سوريا وضعف العنصر البربرى بين سكان الاندلس ، فى القرن العاشر الميلادى (3) ·

كيف نعلل تلك السهولة والسرعة التى تمت بها الفتوحات الاسلامية الاولى عـلى يـد عدد صغير من الفاتحين ؟

لقد كانت لدى العرب جميع الفرص التى تتيح لهم حسن استقبال الشعوب القديمة السامية والسورية والمصرية وبلاد ما بين النهرين · فالى جانب العلاقات الاثنوغرافية واللغوية التى تربطها بالعرب ، كانت هذه الشعوب قد خضعت عهودا طويلة لحكم روما ثم لحكم بيزنطة فى الغرب ولامبراطورية الساسانيين الفـرس فى الشـرق · وكذلك كانت هذه الشعوب فى حالة ثورة دائمة ضد ادارة القسطنطينية واكتزيفون (4) · وكانت ثورتهم ، كما هي حالة الثورات فى الشرق دائما ، ذات طابع دينى فى الظاهر ولكنها ثورات اجتماعية فى الصميم · وقد اهتز عرش بيزنطة بالبدع ومخالفة المالوف وبنظرية النساطرة والمذهب الذى لا يعرف الا بطبيعة واحدة للمستتيح ، وهـي كلها نظريات تتعارض مع المذهب الرسمى الذى تدين به الكنيسة الشرقية · وفى مملكـة الساسانيين ، كانت المانوية والديانة اليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب تنتشر ، معارضة للمازائية ، الديانة الرسمية ·

وفى مقابل كل ذلك ، نجد أن اتجاه الرسالة الاسلامية نحو الديمقراطية والمساواة، وابتعادها عن النظرة الوطنية الضيقة ، كان يستجيب للحركات الثورية الاجتماعية والدينية فى البلاد المفتوحة · وهذا الاعتبار ، هو الذى سهل ، على الاقل جـزئيا ، الفتوحات الاسـلامية · ومن جهـة أخرى ، فان الرغبة فى استتباب الامـــن واستقـــرار السلام تدفع بسكان المدن الى الانضواء تحت لواء الفاتحين الذين ينتظرون منهـــم الحماية من الفوضى وعبث البدو · والمقاومة المتصلبة الوحيدة التى واجهها الفتـح الاسلامي فى نهاية الامر ، هي تلك التى ابداها البربر ، الذين قاوموا قرطاجنة وروما ثم العرب ، وقاوموا الترك بعدهم · وكذلك ظل البربر تحت الحكـم الاسلامى ، فى حالة مقاومة صريحة أو مكتوبـة ·

(3) راجـع : Lévi-Provinçal, l'Espagne musulmane au X[e] siècle - Institution et vie sociale, Paris, 1932, pp. 8 et suiv.

(4) Ctésiphon مدينة اشورية تقع على دجلة وكانت مقرا فى الشتاء لملوك البرث Parthes ثم الملوك الساسانيين من بعدهم « المترجم » ·

وعلى كل حال ، فان عدم تشدد الفاتحين ، وفتورهم ، بل وتشككهم فى الامور الدينية ، قد سهل قيام علاقات مرضية بينهم وبين الشعوب المغلوبة على أمرها · وكذلك نجد ان الفاتحين لم يمارسوا الاضطهاد أو القهر لحمل هذه الشعوب على اعتناق الدين الاسلامى · والشرط الوحيد الذى فرضه العرب ذو طابع ضريبى · فان معاهدة الصلح التى يوقعونها طبقا للاجراءات المعمول بها آنئذ مع السلطات الدينية المحلية ، تضمن ، فى مقابل ضريبة (الجزية) يقوم أعيان مختلف الجماعات بجمعها ، حرية العقيدة الدينية واستمرار النشاط الاقتصادى ·

وقد تمت الفتوحات الاسلامية بسرعة كبيرة بحيث لم يقع أي انقطاع فى مجرى الحياة العامة · بل ان الحالة السابقة للفتح قد استمرت كما كانت فى جميع المجالات المؤسسات والاجهزة الادارية والموظفين والاجراءات واعمال المكاتب وجمع الضرائب ، وأخيرا العملة المتداولة · فان الدرهم الساسانى المضروب من الفضة والدينار البيزنطى المضروب من الذهب ، سيستمر تداولهما فى البلاد المفتوحة حتى القرن الثامن الميلادى · وعلى الصعيد الاقتصادى ، استمرت المدن وشبكات الاتصالات التجارية « وهي هياكل حيوية » ، بدون تغيير يذكر · فان ضريبة القمح التى تجبى على الغلة السنوية فى مصر والتى كانت توجه الى روما فى البداية ، ثم الى القسطنطينية لدى تحول السلطة الامبراطورية الى هذه المدينة ، لم تلغها السلطات الاسلامية بعد فتح مصر ، وانما اكتفت بتحويلها ، عن طريق البحر الاحمر ، الى عواصم الجزيرة العربية ، ثم الى دمشق ، عاصمة الخلفاء الامويين وكذلك احتفظ المسلمون بجباية الضرائب ، ولكن لمصلحة الجماعة الاسلامية وحدها · وقد كان فرض الضرائب على غير المسلمين مظهرا من مظاهر الفتح الاقتصادية ، حتى شعر الخليفة بالتهديد بفقد الدخل من الضرائب بصورة متزايدة ، نتيجة للاقبال على اعتناق الاسلام ، ففرض ضريبة عقارية شملت المسلمين وغير المسلمين على السواء ·

والملاحظ أيضا أن الفتوحات الاسلامية لم ينجم عنها شيء من التخريب والتدمير . فان الفاتحين المسلمين لا يحرقون ولا ينهبون المدن المفتوحة · والحالة الاستثنائية الوحيدة التى تستحق الذكر ، هي حالة قصور الساسانيين التى كانت تحتوى على كنوز من الذهب · وبالتالى ، فان الفتوحات الاسلامية لم يرافقها اضطراب فى الحياة المدنية : وقد كانت الشعوب المغلوبة توفر بطريقة طبيعية الاطارات الادارية والطاقات الذهنية · وكذلك لعب المسيحيون واليهود والفرس الذين اعتنقوا الدين الاسلامى ،

او الموالى ، كما كانوا يسمون دورا حاسما فى اقامة دعائم هذه الحضارة التركيبية ، الحضارة الاسلامية · وحتى الموضوعات اللغوية ، مثل تنظيم قواعد النحو « العربى » وبعض المسائل التى تتصل بتثبيت نص القرآن بصفة نهائية ، ستكون مجالا لتدخل غير العرب من ابناء الشعوب الشرقية القديمة الذين كانوا يتمتعون بتدريب تقنى ذهنى فائق ·

وهكذا كان الشرق الاسلامى ، أي أراضى الساسانيين قديما « العراق وايران » واراضى بيزنطية « سوريا ومصر » ، بمثابة بوتقة لصهر مختلف عناصر حضارة تركيبية ستنتشر فيما بعد فى جميع انحاء العالم الاسلامى ، شرقا نحو آسيا الوسطى ، وغربا نحو افريقيا « تونس وشرق الجزائر » والمغرب الاقصى واسبانيا وصقلية ·

ومن هذا الامتداد الحضارى ، نشأت فى القسم الشرقى فى ممتلكات الساسانيين والبيزنطيين القديمة حركة استمرار تعززت واصبحت قاعدة انطلاق ، وفى القسم الغربى قامت نهضة وتجديد حقيقى ·

وعلى عكس نظرية بيرين المشهورة (5) ، فنحن نعتقد أن الغرب انما تمكن من الاتصال بالحضارات الشرقية ، وعن طريقها بالحركات التجارية والثقافية العالمية ، بفضل الفتوحات الاسلامية · فبينما نلاحظ ان الغزوات الكبرى التى قام بها البرابرة فى القرنين الرابع والخامس الميلادى ، قد نجم عنها تدهور اقتصادى فى الغرب الميروفانجى ثم الكرولانجى « نسبة الى شرلمان » ، نجد أن قيام الامبراطورية الاسلامية قد كان من نتائجه نمو مدهش لهذا الغرب المسيحى نفسه · فاذا كان الغزو الجرمانى قد اسرع بتدهور الغرب ، فان الفتوحات الاسلامية قد تسببت فى انبعاث حضارته · وبالاختصار ، فان المشكلة التى قامت فى الغرب بشان غزو البرابرة وبشان الاستمرار أو التدهور ، يجب حسمها ، فى حالة الفتوحات العربية فى جميع انحاء المملكة الاسلامية ، بالتاكيد بعدم وجود انقطاع ، بل ، زيادة على ذلك ، فان هذه الفتوحات كانت نقطة انطلاق عظيم فى طريق النمو والتقدم والازدهار ·

انتشار الاسلام واللغة العربية والعنصر السامى :

يجب أن نطرح ثلاثة مشاكل ، كلا على انفراد وبوضوح ، وهي : نشر الاسلام ، وتعريب البلدان المفتوحة وتاثير العنصر السامى فيها ·

---

(5) راجع : H. Perenne : Mohamed et Charlemagne, 4° éd. - Paris, Bruxelles 1937.
والمقالات المجمعة والتى نشرها P. E. HUBINGER تحت عنوان :
Bedeutung und Rolle des Islam beim Uebergang vom Altertum zum Mittelalter (Wege der Forschung, 202) Darmstadt, 1968.

فانتشار الاسلام ، معناه اعتناق سكان البلدان المفتوحة للدين الجديد · وقد ساعد على انتشار الاسلام الامتيازات الضريبية التى كان يتمتع بها من يعتنقون الاسلام وينضوون تحت لوائه ، وبعبارة أخرى ، الغاء الجزية التى يدفعها غير المسلمين.

واما التعريب ، فيجب أن نفهمه بمعناه اللغوى فقط ، واما الدم والعرق العربى ، فهو لا يكاد يكون ملحوظا (6) ·

واما التقاليد العربية الحقيقية ، فانها لم ينتقل منها الى البلدان المفتوحة الا الشىء اليسير · والشىء الذى يسمى فى كثير من الاحيان ، غلطا ، بالتعريب ، فهو انما يعنى فى الحقيقة اعتماد مجموعة من التقاليد والنظريات السامية والشرقية وتقبل بعض الافكار الاخلاقية والمحظورات المقدسة والروايات التى تتعلق بخلق الكون واطارات التفكير والتطبيق ، مما هو شائع بين الشعوب السامية « أو بعبارة أدق التى أصبحت سامية » من السوريين وسكان ما بين النهرين ، وخصوصا طبقات السكان التى هي بمثابة المحرك للنشاط : سكان المدن الذين تجمعت فيهم رواسب الحضارات القديمة ـ تلك الحضارات التى علمتهم الدقة والسلوك المهذب والفنون الثقافية والتجارية والحاجة الى نظام اجتماعى ثابت الدعائم ، كما جردتهم ايضا من « الفضائل الحربية » ـ وهي خصائص شائعة بين شعوب العصور القديمة ـ مما احتاج الامر معه الى الالتجاء الى الجنود المرتزقة · والفتوحات الاسلامية ، هي أولا وقبل كل شىء عبارة عن معارك انتصر فيها العرب البدو الذين خرجوا من الصحراء سالكين طرقا واضحة المعالم لينقضوا على مدن عامرة تحيط بها ارياف وفلاحون يمدونها بما تحتاج اليه من المنتجات · والفتوحات الاسلامية بعد ذلك ، هي من عمل البربر والصنهاجة «الرحل» وسكان الجبال من قبيلة كتامة·وفى مرحلة تالية ، هي من عمل الاتراك والاكراد والديلميين · فمن هذا الاحتياطى من المحاربين المرتزقة ، جند الاسلام قوته العسكرية ·

(6) ينبغى الا يغيب عن اذهاننا ان المؤلف يتحدث عن الفتوحات الاسلامية الاولى وعن الفترة الزمنية التى حددها لعملة هذا « بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى » · وبالتالى ، فهو لا يأخذ بالاعتبار هنا تلك النتائج الاثنوغرافية الهامة لبعض حركات الهجرة العربية ، مثل التى وقعت أثناء غزو بنى هلال لشمال افريقية « المترجم » ·

واما تأثير العنصر السامى ، فهو شيء آخر · انه عبارة عن حضارة مدن الشرق القديمة ، وهي تتركب من عناصر فارسية وهلينية ، انتشرت خارج الاراضى السامية بواسطة عدد من الطرق والوسائل · فقد انتشرت هذه الحضارة فى المكان الاول عن طريق اللغة العربية التى هي لغة القرآن ، ولغة الحكومة ، ولغة المكاتب ولغة التبادل التجارى بين البلدان المتباعدة ، ولغة الحضارة الادبيّة والعلمية · فان تفكير اليونان والايرانيين والهنود والصينيين انما وصل الينا معظمه عن طريق الترجمة باللغة العربية ، أي بواسطة اداة سامية · وكذلك سلك التأثير السامى للطرق التجارية التى أستخدمها المشارقة ، وهجرة جماعات صغيرة وتكوين مجتمعات دينية فى نقاط استراتيجية فى التجارة العالمية . وهذه الجماعة من الرواد ستقوى وتتعزز بفضل مهاجرين جدد · وفى نفس الوقت اتسع نشاط هذه الجماعات التى كثر عددها وراحت تستكشف مناطق جديدة وتقيم المزيد من المراكز بينما تحتفظ بمؤخرة مواقعها لتتراجع اليها عند الحاجة ، وبوشائج تنقطع أحيانا بسبب الخلافات وتقوى احيانا أخرى وتشتد باعادة التكتل والتجمع · وكذلك تولدت الجماعات اليهودية التى تكتب باللغة العبرية أو الارامية وتتحدث باللغة العربية ، والجماعات النسطورية التى تكتب اللغة العربية ، والجماعات النسطورية التى تكتب اللغة السريانية وتتحدث باللغة العربية ·

ونلاحظ أخيرا أن العمليات الثلاث التى حللناها باختصار : انتشار الاسلام واللغة العربية والتأثير السامى « عن طريق الحضارة » ، كانت المدن مسرحها فى بداية الامر · فان مناخ المدن كان ملائما لها نتيجة لنوع من الانسجام الذى كان موجودا من قبل ومن المدن ، امتدت هذه العمليات الى البيئة الريفية · ونحن نعرف أن العالم الاسلامى كان خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر ، مركزا لحركة عظيمة لعمران المدن · والمناطق التى قوي فيها عمران المدن ، كانت هي المناطق الاولى التى تتأثر أكثر من غيرها بهذه العمليات · واما المناطق الاخرى ، فستظل وقتا طويلا تعيش على هامش هذه الحركة · بل ان بعض المناطق ستفلت الى الابد من هذا التأثير · وكذلك نرى معارضة تقوم فى افريقيا الشمالية بين المدن الواقعة تحت التأثير العربى والتأثير الشرقى ، وبين جبال البربر التى لا يكاد التأثير الاسلامى يمس فى سكانها الا قشرة سطحية ·

فضاء الفتوحات : العالم الاسلامى :

يشمل الامتداد الجغرافى للفتوحات الاسلامية بين آسيا الوسطى واسبانيا ــ فى داخل هذه الحدود أو فى المناطق الخاضعة لنفوذه ــ الاراضى التى تقع فى قلب

العالم القديم · وقد كانت هذه الاراضى فى ذلك العهد ، أهم مناطق فى العالم من الناحية الاقتصادية بانتاجها الزراعى والصناعى والمعدنى ، وخصوصا بتنظيمها التجارى : تجهيز الموانىء ، وشبكة طرق القوافل ، وأخيرا بنشاط سكانها · وقد أصبحت موارد تلك الاراضى منذ الآن تتمتع بقنوات واسعة للتسويق كما كانت موضوعا لنشاط اقتصادى فسيح الرقعة ·

كانت الاراضى ذات التربة الخصبة هي : الاراضى الواقعة بين دجلة والفرات ومصر ، وهي بلدان قديمة ذات واحات وامكانيات للري · وكذلك تشمل هذه الاراضى سهول افريقيا الشمالية الخصبة التى تنتج القمح والزيت كما تشمل الاندلس ·

وأما الاراضى التى تنطوى احشاؤها على المعادن ، فهي تشمل القوقاز وبلاد الارمن وافريقيا الشمالية واسبانيا ·

ولكنه الى جانب هذا الانتاج المعدنى المباشر ، كان العالم الاسلامى يسيطر على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب الرئيسية فى العالم : افريقيا الجنوبية الشرقية والسودان وآسيا الوسطى ·

واما المراكز الصناعية التى سجلت تقدما كبيرا ، فهي تقع فى ايران وبلاد ما بين النهرين وسوريا والدلتا المصرية ·

وقد كان لدى العالم الاسلامى موانىء كبيرة تستقبل سفنه وتشتمل على احواض لبناء وتصليح السفن ، وتقدم البحريين المدربين على شؤون الملاحة · وفى هذا المجال كان لدى العالم الاسلامى ثلاث مجمعات فسيحة : موانىء الخليج العربى والبحر الاحمر التى يسير منها البحريون العرب والفرس سفنا فى اتجاه المحيط الهندى · ويكمل هذه المجموعة نظام للملاحة النهرية فى دجلة والفرات · وتأتى بعد ذلك موانىء سوريا ومصر ، وفى مقدمتها ميناء الاسكندرية الذى تكمله الملاحة فى نهر النيل · وأخيرا ، موانىء مضيق صقلية ومضيق جبل طارق · وتلحق بها الملاحة فى نهر اشبيلية وقرطبة الوادى الكبير Guadalquivir ·

وكذلك كان لدى العالم الاسلامى عدد من المدن التى كانت مراكز لتجارة القوافل وتتمتع بتنظيم محكم للنقل وتشرف على طرق التجارة التى تنطلق من بلاد ما بين النهرين « نحو سورية غربا والى ايران وآسيا الوسطى شرقا » ومن الجزيرة العربية وطرق التجارة التى تمر عبر الصحراء · وهذا النظام الذى يقوم على شبكة من طرق

المواصلات ، يتطلب توفير حيوانات النقل الضرورية « الجمال والخيل والبغال والحمير » وموظفين وعمالا ومرشدين اكفاء وتجارا ومجهزين للقوافل يمدونها بالمزاد والعتاد · وقد كان سكان المشرق الذين يطلق عليهم اسم « السوريين » أو «المشارقة» والذين كانوا يمسكون بزمام التجارة العالمية ، خير خلف للفنيقيين فى هذا المجال ·

ومن جهة أخرى ، فقد كان رصيد الذهب الآتى من قصور الساسانيين ومن الكنائس البيزنطية ، موردا يعزز قوة العالم الاسلامى الاقتصادية ، تلك القوة التى تقوم خصوصا على الدور الذى كان العالم الاسلامى يلعبه بوصفه محتكرا لتجارة المرور « الترانزيت » ، بين الشرق الاقصى والمحيط الهندى والغرب من جهة ، وافريقيا الوسطى والبحر الابيض المتوسط ، من جهة أخرى ·

وكذلك كان الاسلام يحتل موقعا حيويا عند مفترق الطرق التجارية الكبرى فى ذلك العصر ، ولم يكن يفلت من سيطرته سوى طريق تجارية واحدة : تلك الطريق التى كانت تربط الشرق-الاقصى ومنغوليا وآسيا الوسطى ، متجهة الى السهول المجرية · وهذه التى تمتد فى شمال الحضارات الاسيوية القديمة والبحر الابيض المتوسط ، طريق ثانوية عرضية · وكذلك كان يفلت من سيطرة العالم الاسلامى مركز تجارى واحد ، وهو بيزنطة ·

وهكذا تتضح لنا قيمة موقع العالم الاسلامى فى قلب العالم القديم · فالاسلام ليس بحضارة هبطت الى الارض من كوكب آخر فجاة وبدون مقدمات · ولكنه يتصل اتصالا وثيقا بالبيئة والمناخ التاريخى الذى يحيط بهذه الرقعة الجغرافية التى انتشر فيها ·

وفيما يتعلق بالمناطق التى يقطنها السود ، من شواطىء افريقيا الغربية حتى شواطىء افريقيا الشرقية ، فقد كان مجيىء الاسلام اليها حدثا تاريخيا عظيما ويشكل اساسا لتاريخ افريقيا الحديثة ·

ومن جهة المحيط الهندى ، سينتشر الاسلام فى تلك الاصقاع حتى يشمل اندنوسيا ·

وفى آسيا الوسطى ، سيتعرض العالم التركى والصين معا ، لنفس التاثير · فان الفتوحات الاسلامية الاولى ، سيكون من نتائجها اعتناق الترك للدين الاسلامى · وهؤلاء الترك سيقومون بدورهم بنشر الاسلام فى الصين ·

واخيرا ، فقد سلك الاسلام ، من جهة بيزنطة والغرب المسيحى ، الطرق المؤدية من البحر الابيض المتوسط الى أوروبا الوسطى وحتى البلاد الواقعة على بحر البلطيق

وقد كان انتشار الاسلام فى هذا الاتجاه ملتقى ومثار تدخل ، اذا تذكرنا مطامع بلاد اسكندناوة للتوسع ، من جهتها ، فى اتجاه البحر الاسود وبحر قزوين ٠

وجميع هذه المناطق والبلدان ، كانت تشكل آفاقا اقتصادية واسعة لنشاط المسلمين الاستكشافى . وقد تـرك الاســلام فى كل منها آثـارا لا تمحى من الناحية الدينية بانتشار هذا الدين بين السكان ، ومن الناحية التجارية ، كما تشهد بذلك قطع النقد الاسلامية التى اكتشفت فى هذه الاصقاع ٠ ومن جميع هذه البلدان كان التجار المسلمون ينقلون سلعا متنوعة يتخذون منها أساسا لتيارات قوية للتبادل التجارى :

واما مركز العالم الاسلامى ، فهو يقع فى المناطق التى تمتد بين الخليج العـربى والبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط ، والبحـر الاسود ، وبحر قـزوين ٠ وكذلك نجد ان العـالم الاسلامى تلتقى فى احضانه منطقتان اقتصاديتان كبيرتان : المحيط الهندى والبحر الابيض المتوسط ٠ فان هاتين المنطقتين اللتين اجتمعتا فى العصـر الهلينى ، ثم افترقتا لتشكـلا عالـمين متنافسين ، الرومانى ـ البيزنطى والبـرثى ـ الساسانى ، ستلتحمان وتشكـلان وحدة اقتصادية مـن جديد ، بفضـل الفتوحات الاسـلاميـة ٠

وهذه الوحدة تقوم على أساس علاقات تجارية واسعة بطرق القوافـل وبالطرق البحرية ، والعملة الشائعة التداول ، الدينار الاسلامى واللغة التجارية الدولية حينئذ ، اللغة العربية ٠ وقد سهل قيام هذه العلاقات ، تفتح العالم الجديد وتقبله للفنـــون والتقنية وتشجيعه لنشر طرق الانتاج فى جميع البلدان الاسلامية وللتنافس بين طرق الانتـاج البيزنطية والشرقية ٠

وأخيرا ، كان من أهم العوامل التى سهلت الوحدة الاقتصادية المذكورة ، عودة ظهور أسواق الاستهلاك الكبرى للتجارة العالمية فى المنطقة العربية للبحـــر الابيض المتوسط ، فى شكل مدن جديدة « القيروان وتونس وفاس » ، وانتعاش بعض الاسواق القديمة « مثل اشبيلية وقرطبة وبلرم » ٠

فان هذه المراكز الجديدة الواقعة فى غرب العالم الاسلامى سترتبط ارتباطا وثيقا بالمراكز الشرقية القديمة المقابلة لها والتى من بينها مراكز انشأها الهلينيون ، مثـل الاسكندرية وانطاكية ، وأخرى بناها العرب ، مثل القاهرة وبغداد ٠

وهذه الحقيقة الاخيرة جوهرية · فان قيام شبكة جديدة من المدن وانتعاش مدن قديمة ، سيمد العالم الاسلامى الجديد باطار اقتصادى واجتماعى وثقافى · وكذلك ارتبطت كل مدينة باخرى بشبكة من العلاقات التى كانت مهمة ، لان المدن كانت نقط الارتكاز والمراكز المحركة للحياة الاقتصادية فى العالم الاسلامى · ونحن نلاحظ ان سيطرة المدن وتفوقها كان من الامور الرئيسية الثابتة خلال الفترة التى ندرسها ، أي بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى · فمن سمرقند الى قرطبة ، كانت الحضارة الاسلامية ترتكز على المدن التى يتردد عليها الرجال وتستقبل السلع والافكار الآتية من كل صوب · وهذه الحضارة الموحدة ، حضارة تركيبية تقوم على اساس حضارات اقليمية ريفية أو بدوية قديمة ·

وكذلك نتصور العالم الاسلامى ، وكأنه سلسلة من الجزر ، التى هي المدن ، ترتبط فيما بينها بالطرق التجارية ·

وهذا التنظيم الذى يقوم على أساس أهمية المدن ، سيتعرض لضربات قاضية نتيجة للازمات والاضطرابات والغزوات التى وقعت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر · فان هذه الاحداث سيكون من نتائجها قطع التيارات الكبرى للتبادل التجارى ، وبالتالى خنق المدن وتدهورها ·

وفى المرحلة التاريخية التالية ، سيفقد العالم الاسلامى وحدته ويعانى من نتائج انقسامه · وسيكتسى الاسلام طابعا وطنيا فيكون هناك اسلام تركى واسلام فارسى واسلام سورى واسلام مصرى واسلام مغربى · وبذلك نشاهد انقطاعا فى الحضارة الاسلامية وظهور العناصر المميزة للاقاليم والتى تركب منها الحضارة بوضوح ·

بـــــلاغ

الملتــقى الثــانى عشــر للفــكر الاســلامى

تعلن وزارة الشؤون الدينية ان الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى سينعقد فى عاصمة الاوراس ، باتنة ، من الرابع الى الحادى عشر من شوال 1398 هـ (السابع الى الرابــع عشر سبتامبر 1978 م) ·

وهو للطلبــة (**الجامعيــين**) من الجزائر وغيرها ·

وقد دعي الى هذا الملتقى أساتذة جامعيون وبحاثة من العالم الاسلامى وغيره ·

وستتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منــه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون فى باتنة ·

وترسل طلبات المشاركة الى وزارة الشؤون الدينية ، مديرية البحوث الاسلامية والملتقيات ، المديرية الفرعية للملتقيات ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكــر كلمة « الملتقى » على زاويــة الغــلاف ·

وعلى كل مترشح ان يبعث مع طلبه شهادتين : دراسية وطبية وظرفا (ذا مقيــاس 21×16) يحمل عنوانه وطابع بــريد ·

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 24 جمادى الثانية 1398 هـ (31 مايو 1978 م) ويكون ختــم البريد شاهــدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) **الاوراس أمجـــاد وأنجـــاد** (الامجاد : المقصود بها المفاخر ، فى مختلف المجالات ، على مر العصور ، والانجاد ج نجد ، كل ما سما وعلا ، حسا أو معنى ، أو كليهما ، والمقصود هنا ليست التضاريس طبعا ، ولكن المواقع التاريخية ، مسارح الاحداث العظام ، من يسر وعسر ، بالمعنى القرآنى : « **وهديناه النجدين** » الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، أو قول الامام علي : « أما بنو هاشم فأمجاد أنجاد » (والانجاد فى قوله هذا بمعنى الشجعان) ، فكما تشرف قمم الجبال على السهول والبطاح ، تتميز الاحداث العظام عن المجريات اليومية العادية ، وتقفز الى العين الاماكن التاريخية كمعالم وعلامات بينة ، بارزة ، سائدة على

باقى الرقعة من الارض، ومسيطرة على الورق من الكتاب . الاسباب والآثار المعنوية لتلك الاحداث . الآثار المادية : الاطلال . . الباقية . التدابير المتخذة أو المنوى اتخاذها لابراز تلك الآثار والحفاظ عليهـــا) .

2) **الدين والعلـــم** (الكتب المنزلـة ـ وخاصـة منهـا القرآن ـ والعلـم . مدى صحة ما يقال اليوم من أطراف مختلفة : الجاهل المشعوذ ، والدجال السياسى الذى يلعـب بعقول الجماهير ويستغل الدين ـ أي دين كان ـ سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، والملحد عن اعتقاد ، أو تعقد ، أوجهل ، الذى يزعم ان الدين ينافى العلم ولم يعـد يقبلـه العصر ... الى حـد أن كثـيرا من انصـاف المتعلمـين يتباهون بمعـاداة الدين حتى يقال فيهم انهم ··· هل الدين دليل خير أم مخدر للفرد والمجتمع ؟ أم لا هذا ولا ذاك ؟ فماذا اذن ؟) .

3) **الى م تيسر فى العالـم الاسرة : الى اليسرى أم العسرى ؟** (تيسر : تهيـا ، تعد ، توجه ، يقصد بها ، يذهب بها الى ··· والمراد : ما المصير الذى يهيـأ ويراد للاسرة اليوم ··· على ضوء ما نرى ، ونسمع ، ونقرأ ··· هنا وهناك ·· فى العالم بأسره ؟ هل هي نظام يجب الغاؤه فى أسرع الآجال ؟ أم يكفى تركه ليموت ··· مونه الآجل أو العاجل ، باهماله على حاله ، ينخر السوس فى عظامه ؟ أم بالدفع به قصدا الى الموت بمختلف الوسائل والطرق ؟ أم يجب بذل جميع الجهود للحفـاظ على هذا النظام ، بل وتعزيزه وتوطيد اركانه ؟ وكيف ذلك ؟) ·

4) **نظـرة جامعـة عـلى الجامعـة** (نشأة النظام الجامعى فى العالم وتطوره : مولـد الجامعة فى تاريخ البشرية كنواة للنظام الجامعى بالمعنى العصرى ، دور الحضارة الاسلامية فى هذه النشأة وفى تطورها : تطور النظام على مـر العصور · معنى وجدوى ـ أو عبث ومضار ـ الاصلاحات المتتالية ، وخاصة منها الجارية على هذا النظام فى العالم اليوم · آثارها على الشباب والمجتمع) ·

5) **ماض ومضى هى الجزائر ، لا طفـل أو طيـف زائر !** (العـلاقات بين الجزائر وبقية العالم قبل 1962 فى القديم والحديث ، وخاصة منذ بدء العصر الحديث : مـع روما ، وقرطاجنة ، مع بلدان المغرب الاخرى ، والاندلس ، مع بقية البلاد الاسلامية ، مع الخلافة العثمانية ، مع افريقيا ، مع فرنسا ، واسبانيا ، وأوربا باكملها ، ومـع الولايات المتحدة الامريكية منـذ نشأتها ، ومـع آسيـا وباقى العـالم ، فى مختلف المجالات · الاستمرارية فى تاريخها وشخصيتها رغم الداء والاعداء) ·

دور الشعر النضالى في تحرير بيت المقدس

د. عمر موسى باشا
استاذ فى جامعة الجزائر سابقا
واستاذ فى جامعة دمشق حاليا

كان الشعر الحماسى والادب النضالى فى تاريخ العرب والمسلمين يمثلان الكفاح المرير والصراع الكبير ضد اطماع الغرب والشرق فى بلاد المغرب والمشرق على السواء . والحروب الصليبية والغزوات التترية من اشد ما قاسته الامة العربية منذ اقدم عصورها .

كانت الخلافة العباسية فى اشد فترات ضعفها قبل سقوطها على ايدى التتار ، ولا امل يرتجى منها لتحرير الثغور الشامية بعد احتلال الطراز الاخضر بكامله ، وتمكن الروم والفرنجة ، واستولوا على معظم حواضر الشام والجزيرة ، وقويت شوكتهم « وقد اصبحت ولايتهم من ماردين الى عريش مصر ، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين » .

وهكذا رات بلاد الشام ضرورة الاعتماد على نفسها بعد ياسها من الخلافة العباسية ، فظهرت امارات وممالك نذرت نفسها للكفاح والجهاد املا فى التحرير ،

ولم يتم القضاء على هذا الاحتلال الا بقيام ثلاث قوى كبيرة ، تمثلت فى الاتابكة الزنكيين والسلاطين الايوبيين والمماليك ·

يرجع الفضل الاول للزنكيين ، لانهم أدركوا نذير الخطر الذى يتهدد البلاد ، فبدأوا معركة التحرير ، وجاء الايوبيون بعدهم ؛ فاتموا خطة سابقيهم وحرروا بيت المقدس ومعظم الثغور الفلسطينية ، ولم يتم التحرير النهائى الا على يد سلاطين المماليك ، اذ استطاع الاشرف خليل طرد الروم والفرنجة نهائيا بعد فتح عكا سنة (690 هـ ـ 1291 م) ، وقد مدحه شاعره الشهاب محمود بقصيدة مطلعها :

الله اكبر ذلت دولة الصلب   وعز بالترك دين المصطفى العربى

كما الف أحمد بن على الحريرى كتابا أرخ فيه هذا الحدث الهام ، وعنوانه : (الاعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين) ·

وسوف أقتصر على تصوير ملحمة حطين ، وتحرير بيت المقدس وفلسطين من خلال الشعر العربى ، وذلك لتوضيح دوره وبيان أهميته فى معركة المقاومة والتحرير ·

الاستثارة والتحريض :

تولى الشعراء مهمة التحريض على جهاد الفرنجة واستثارة همم الملوك وعزائمهم وذلك لشن حرب التحرير وانقاذ بيت المقدس من سلطان احتلالهم ·

بدأت الدعوة التحريرية باكثر من نصف من الزمن ، ولعل أول اشارة كانت فى احدى مدائح ابن منير الطرابلسى فى عماد الدين زنكى :

وغدا يلقى على القدس لها   كلكل يدرسها درس الدرين

همة تمسى وتضحى عزمة   ليس حصن ـ ان تحطه ـ بحصين

كان كل فتح من الفتوح الاسلامية مناسبة يهتبلها الشعراء لتذكير المسلمين بمتابعة الجهاد المقدس ، فلما تم فتح الرها أنشد ابن القيرانى قصيدة يمدح وزيره جمال الدين ، ومما قاله :

اما آن أن يزهق الباطل   وأن ينجز العدة الماطل

فان يك فتح الرها لجة   فساحلها القدس والساحل

فهل علمت علم تلك الديار   بأن المقيم بها راحل

وحين قتل صاحب انطاكية البرنس عند حصن انب سنة 544 ، وحمل رأسه الى حلب ، مدح الشعراء نور الدين ، وانشده ابن القيرانى فى جسر الحديد بين حلب وانطاكية قصيدة جاء فيها قوله :

أغرت سيوفك بالافرنج راصفة ... فؤاد رومية الكبرى لها يجب

فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب ... يوليك اقصى المنى فالقدس مرتقب

وائذن لموجك فى تطهير ساحله ... فانما انت بحر لجه لجب

ولما تم أسر جوسلين ، وكان كثير الغدر والمكر ، اكثر الشعراء من وصف هذه الحادثة ، ومما قاله ابن القيرانى فى احدى قصائده مادحا :

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة ... فبالافق الداجى الى ذا السنا فقر

كانى بهذا العزم ـ لافل حده ـ ... واقصاه بالاقصى وقد قضى الامر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا ... وليس سوى جارى الدماء له طهر

وقد ادت البيض الحداد فروضها ... فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر

وصلت بمعراج النبي صوارم ... مساجدها شفع وساجدها وتر

وان يتيمم ساحل البحر مالكا ... فلا عجب أن يملك الساحل البحر

انها تنبؤات وتصورات عبر المستقبل قبل خمسين عاما ، وفى هذه الابيات بالذات نجد الشاعر بين الحقيقة والحلم والحاضر والمستقبل ، ونجد الشاعر ينتقل من مرحلة القلق والحيرة الى الرضا والاطمئنان حينما يتخيل فى بصيرته لابصره البيض الحداد قد أدت فروضها ، والصوارم المشخصة التى بعث الشاعر الحياة بها اخذت تصلى راكعة ساجدة بعد أن كانت قائمة منتصبة ، فمساجدها شفع وساجدها وتر ، ذلك كله فى قبة الصخرة حيث انتهى اسراء محمد (ص) من مكة ، وبدأ عروجه السماوى ليحظى بالذات الالهية ويكون قاب قوسين او ادنى .

لقد مات هؤلاء الشعراء أصحاب الاستثارة والتحريض ، ولم تكتحل اعينهم بيوم النصر الاغر . وجاء بعدهم آخرون ، تابعوا أسلافهم ، نذكر منهم العماد الكاتب الذى خاطب نور الدين بعد فتح منبج :

فانهض الى البيت المقدس غازيا ... وعلى طرابلس ونابلس عج

قد سرت فى الاسلام أحسن سيرة ... ماثورة وسلكت أوضح منهج

ولما توحدت مصر والشام فى عهد نور الدين بعد القضاء على الفاطميين وقطع صلاح الدين الخطبة لهم ، بعث العماد الكاتب اليه قصيدة يهنئه بذلك ، ومما قاله :

وطهر القدس من رجس الصليب وثب | على البغاة وثوب الاجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما | فى عقد عز من الاسلام منتظم

وانتقلت دعوة الاستثارة والتحريض الى صلاح الدين حين تفرد بالسلطان بعد موت نور الدين ، وتابع الشعراء دعوتهم واستنفارهم فى تهيئة سبل التحرير والجهاد والمقاومة حتى كانت ملحمة حطين ، وافتتح بعدها بيت المقدس ٠

ملحمة حطين الخالدة :

لاشك ان معركة حطين الخالدة كانت الملحمة الخالدة فى التاريخ الاسلامى ، وقد اكثر الشعراء فى التحدث عنها والتغنى بها ، والاشادة ببطلها الكبير صلاح الدين الايوبى ، نذكر منهم العماد الكاتب ، وزيره المقيم فى بلاد الشام ، فانه وصف هذه الملحمة فى بضع قصائد ، واشار اليها فى عدة مناسبات ، منها فتح نابلس ،وفتح القدس ٠

اما اشهر قصائده الحطينية فهي قصيدته السينية التى جاء فيها قوله :

يا يوم حطين والابطال عابسة | وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رايت فيها عظيم الكفر محتقرا | معفرا خده والانف قد تمسا
يا طهر سيف يرى راس البرنس فقد | اصاب اعظم من بالشرك قد نجسا
عرى ظباه من الاغماد مهرقة | دما من الشرك رد اهابه وكسا
من سيفه فى دماء القوم منغمس | من كل من لم يزل فى الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا | وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

اشار العماد فى هذه القصيدة الى ابرنس الكرك ، ولمح الى حادثته المشهورة مع صلاح الدين ، وهو من جملة من وقع فى الاسر يوم حطين ، وكان السلطان قد استحضر الاسرى من ملوك الفرنجة وأمرائهم ، وهم الملك كي ، وأمير الكرك أرناط ، واخو الملك جفرى ، وصاحب جبيل أوك Hugh II Embriaea وهنفرى بن هنفرى Hunphrey IV وابن صاحب اسكندرونة ، وصاحب مرقية ، واقعدهم فى الدهليز واستحضر منهم الابرنس بصورة خاصة ، اذ انه قد غدر بقافلة المسلمين

التى كانت متوجهة من مصر الى الشام ، وقال لاصحابها متهكما : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » فابتدره السلطان قائلا : « ها انا انتصر لمحمد (ص) » . ثم عرض عليه الاسلام تكفيرا لما اذنب فابى ، فضرب السلطان بيده ، واجهز عليه من حوله من جنده ، وذلك وفاء لنذره الذى قطعه على نفسه ، واشهد الله عليه ان هو ظفر به .

تحدث العماد ايضا عن هذه المعركة فى قصيدة سينية اخرى وجاء فيها قوله :

سحبت على الاردن ردنا من القنا ... ر دينية ملدا وخطبة ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من اجناس لفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن ... معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
كسرتهم اذ صح عزمك فيهم ... ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم ... دمارا كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم ... ولم ترض ارض تكون لهم رمسا
وقد طاب ريانا على طبرية ... فيا طيبها ريا ويا حسنها مرسى

هكذا وقف بنا الشاعر على ضفاف طبرية التى كانت تشهد امر ملاحم التحرير ، وقد طاب له الوقوف فيها يتذكر حطين الخالدة ، ويشهد التاريخ يخلدها على صفحة هذه البحيرة الهادئة .

لا باس ان نقف مع شاعر آخر هو ابن الساعاتى ، وقد دخل مدينة طبرية بعد سقوطها بيد صلاح الدين ، وانشده قصيدة جاء فيها قوله :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت اخيذة الاسلام لما ... غدا صدف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالى ان يهونا
وما طبرية الا هدى ... ترفع عن اكف اللامسينا
قضيت فريضة الاسلام منها ... وصدقت الامانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا ... وترضى عنك مكة والحجونا
فلو ان الجهاد يطيق نطقا ... لنادتك : ادخلوها آمنينا
اعدت بها الليالى وهى بيض ... وقد كانت بها الايام جونا

فألم بالسواحل فهي صور اليك والحق الهام المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا سطاك لكان مكتئبا حزينا
أدرت على الفرنج وقد تلاقت جموعهم عليك رحى طحونا

نوه الشاعر بهذا الفتح المبين ، وأشاد بالبطل الكبير صاحب النصر الاغر ، ثم وقف عند طبرية يتغنى بما حققه ممدوحه فى جهاده الاكبر ، وود لو أنطق الله الجهاد ، وعبر عن نداء مدينة القدس ، وفى هذا التشخيص ما فيه من براعة ومهارة فنية تثير النشوة فى نفس السامع ، كما أشار فى ذات القصيدة الى صليب الصلبوت ، وهو الصليب الاكبر ، الذى يقدمونه ، ويعتقدون أن المسيح عليه السلام قد صلب عليه ، والمعروف أنه وقع فى حوزة المسلمين بعد معركة حطين ·

ثمة أمر هام فى القصيدة وهو الدعوة الى فتح بيت المقدس وتطهير الساحل والطراز الاخضر الشامى من الاحتلال الصليبى · ان قيام الشعراء بالدعوة الى الثار والحرب واستعادة الثغور المحتلة بدأت قبل أكثر من خمسين عاما من الفتح ولو حاولت أن اذكرها لاستنفدت منى محاضرة باكملها ·

تحرير بيت المقدس :

آذنت موقعة حطين الخالدة بتحرير بيت المقدس بعد أن بقي نيفا وتسعين سنة بيد الفرنجة ، وكان ذلك سنة 583 هـ ، وهي السنة الغراء كما دعيت وهي التى سجل فيها صلاح الدين يوسف أروع انتصارات المسلمين فى العصر المذكور ·

كانت هذه المعركة نقطة التحول الكبرى فى التاريخ الاسلامى · ذكر ابن الاثير أهميتها وخطورتها وأشاد بها قائلا :

«وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة» ، وعندما فتح بيت المقدس ذكر بأن هذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب غير صلاح الدين » ·

أما الشعراء فقد أكثروا من نظم القصائد القدسية التى تخلد هذا الحدث الاكبر حتى ان بعضهم قصر معظم شعره على التغنى بفتح بيت المقدس فى قصائد خاصة أسماها (القدسيات) ·

ابرز الشعراء الذين وصفوا هذه الملاحم هو العماد الكاتب ، وقد أورد منها جملة فى أواخر كتابه (البرق الشامى) ·

فمن قصائده التى هناه فيها بالنصر ، ووصفه وهو مخيم على بيت المقدس ، قصيدته التى جاء فيها قوله :

رأيت صلاح الدين افضل من غدا   واشرف من اضحى واكرم من امسى

فلا عدمت أيامنا منك مشرقا   ينير بما يولى ليالينا الرسا

جنودك أملاك السماء وظنهم   عداتك جن الارض فى الفتك لا الانسا

فلا يستحق القدس غيرك فى الورى   فأنت الذى من دونهم فتح القدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم   فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها   والبسته الدين الذى كشف اللبسا

وعادت ببيت الله أحكام دينه   فلا بطركا ابقيت فيها ولا قسا

وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة   بان اذان القدس قد أبطل النقسا

نلاحظ فى هذه القدسية أن الشاعر أثنى على صلاح الدين كل الثناء ، اذ هو أهل لاكثر من ذلك بعد العمل الجبار الذى خلده على مدى الدهر ، ولم يكتف الشاعر بما ذكره ، بل تابع حديثه ورسم كعادة شعراء العصر للبطل الظافر الخطة التى يجب أن ينهجها بعد فتح بيت المقدس ، فلا يقعد هذا الظفر عن متابعة الفتح ، لئلا يعبث به الغرور ونشوة الظفر ، وطلب اليه فى الابيات الختامية أن ينقذ بلاد الشرق كلها من فساد حكامها :

وان بلاد الشرق مظلمة فخذ   خراسان والنهرين والترك والفرسا

زفت البشائر وسيرت أخبار الفتح الاغر الى كل مكان فى العالم الاسلامى ، نذكر منها البشارة الشعرية التى بعث بها صلاح الدين الى الخليفة العباسى الناصر فى بغداد ، وهي قصيدة قدسية ، نظمها العماد ، ومنها قوله :

أبشر بفتح ـ أمير المؤمنين ـ أتى   وصيته فى جميع الارض جواب

أحيا الهدى ، وأمات الشرك صارمه   لقد تجلى الهدى والشرك منجاب

بفتحة القدس للاسلام قد فتحت   فى قمع طاغية الاشراك أبواب

ففى موافقة البيت المقدس للـ   بيت الحرام لناتيه واعجاب

والصخر والحجر المكتوم جانبه   كلاهما لاعتمار الخلق محراب

نفى من القدس صلبانا كما نفيت   من بيت مكة أزلام وانصاب

عبر الشاعر عن البهجة الكبرى فى فتح القدس ، وأعرب من خلال ذلك عن الاهمية الدينية فى موافقة البيت المقدس للبيت الحرام ، لانه اولى القبلتين وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة · يضاف الى ذلك أن الحجر المكثوم فى الكعبة والصخرة المقدسة فى القدس كلاهما كان محرابا لاعتمار الخلق ·

ومن الشعراء الذين خلدوا هذه الملحمة ابن الساعاتى ، فلقد مدح صلاح الدين مشيدا بما حققه للمسلمين من نصر مؤزر ، وجاء فى مدحته قوله :

اعيا ، وقد عاينتم الآية العظمى	لاية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق	وشاع الى أن أسمع الاسل الصما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها	فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
واصبح ثغر الدين جذلان باسما	والسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشى عن سطواته	فما كان الا ساحلا صادف اليما
فللحق شمس لا تقام بباطل	وللعدل فيه اية تنسخ الظلما

نلاحظ فى هذه الملحمة القدسية أن الشاعر أعرب عن فرحته الكبرى ، ولم يكتف بذلك ، وانما سما الى آفاق الحكمة الخالدة ، وذكر الفرنجة المحتلين أن شمس الحق لابد أن تشرق ، وتعم البرية كلها ، وأن آية العدل ستنسخ كل جور وظلم ، كما تمنى فى هذه الملحمة القدسية ان يشهد عمر بن الخطاب نفسه هذا النصر ليكون شاهدة العدل · وقد أعرب الشاعر نفسه عن ذات المعنى فى قدسية ثانية حيث يقول :

هو الفاتح البيت المقدس بعدما	تحامته سادات الدنا ومسورها
فضيلة فتح كان ثانى خليفة	من القوم مبديها وانت معيدها

هكذا يقارن الشاعر بين الفتحين ، الفتح العمرى والفتح اليوسفى وهما فى نظره فضيلتان ، أولاهما كانت على يد ثانى الخلفاء الراشدين عمر وثانيها على يد الناصر صلاح الدين يوسف الذى استطاع أن يعيد الحق الى نصابه بمتابعة نهج سلفه ومولاه نور الدين زنكى الذى خطط لمثل هذا النصر ، فعاد الحق الى نصابه ، وأشرقت شمس العدل الوضاءة ، ونزلت آيته العظمى لتنسخ ضلال الروم والفرنجة ، وتعيد البيت

المقدس الى عرين الاسلام بعد أن عصفت به ريح الخطوب ردحا من الزمن كما يقول الشاعر نفسه فى قدسية ثالثة جاء فيها قوله :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا   فلقين طودا لا تخف أناته

هو منقذ البيت المقدس بعدما   طالت ، فما وجد الشفاء شكاته

أمشتت الاعداء وهي جحافل   عن شمل دين جمعت أشتاته

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب   ولك الفعال كثيرة حسناته

هذى سيوفك محرمات دونه   لبكائهن تبسمت حجراته

شاعر ثالث أيضا من أصل أندلسى ، كان مقيما فى بلاد الشام وقد صرف معظم شعره لنظم الملاحم القدسية هو أبو الفضل الجليانى عبد المنعم بن عمر بن حسان الطبيب الاديب الشاعر الملقب بحكيم الزمان ، فقد نظم قدسياته المشهورة ، وسماها (ديوان المبشرات والقدسيات) وهذا الديوان كان موضع اعجاب القدماء ، وصفه ابن أبى اصبيعة وذكر « أنه نظم وتدبيج وكلام مطلق يشتمل على وصف الحروب الجاية على يد صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس فى سنة 583 هـ » ·

كما ذكرها العماد الكاتب وذكر أنها جياد طوال كثيرة الفوائد ، واطلع عليها أبو شامة المقدسى صاحب الروضين فى أخبار الدولتين ، وأعجب بها كثيرا ، ونقل منها جملة لا بأس بها فى كتابه المذكور · ونرى من الواجب علينا أن نعرض القدسيات الجليانية ، ذات النفحات الاندلسية ، ونبرز أهم ما فيها من المعانى ·

تحدث أبو الفضل عن البطل صلاح الدين ، وذكر أنه لم يزل من أول ماولى الامر فى الشام ومصر يعلم أنه مؤيد بعناية اللـه سبحانه ، وأشار الى ما جاء فى شعره من التباشير القدسية التى تنبأ من ظلال مدحه ، وذكر أنه سيفتتح البيت المقدس على يديه.

امتدح أبو الفضل صلاح الدين قبل الفتح بثمانى عشرة سنة أي سنة 565 هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت ، وجاء فيها قوله فى التباشير :

لتظفرن بما لم يحوه ملك   أبا المظفر حظا خطه الازل

دليل ذلك آراء لك اقترنت   بالحزم والعزم لم يخصص بها الاول

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا   فى سن عشرين وامتدت له الحيل

وافى الثلاثين والاقطار أجمعها   طوعا له وملوك الارض والملل

هذه ارصاصات حكيم الزمان الاندلسى ، حيث يرى أنه الاسكندر الذى ساد العالم فى العشرين وها هو ذا فى الثلاثين وقد أذعنت له الاقطار أجمعها وملوك الارض والملل المختلفة .

أشار الشاعر الى الامر نفسه فى معرض تنبؤاته سنة 567 هـ عند قفوله من معركة غزة ، اي قبل الفتح بست عشرة سنة ، وذكر أنه سيأتى فى أخرى الزمان منقذا لدين كادينبتر :

أبا المظفر ، فاهنأ حظ منتخب أخرى الزمان لدين كادينبتر
زهدت فيما سبى الاملاك مكنرزا علما بملك نعيم ما به كرر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها وجئت تقدم حيث الهول والخطر

وصف الشاعر هذا البطل المنتظر للفتح الموعود بانه كان زاهرا فى الدنيا وزخرفها ، وانه يفعل ما يفعله لنعيم أبدى لا يزول ولا يحول .

وأشار الشاعر الى النصر المقبل على يده قبل خمسة أعوام من الفتح فى قصيدة امتدحه بها سنة 568 ، وقد نيفت على مائة بيت ، وقد تخيل الراية الصفراء تخفق فى العالم كله على السواء بعد تحرير فلسطين :

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها بني أصفر بالراعضات العهاذم
فتسبى فلسطينا وتجبى جزائرا وتملك من يونان أرض الاساحم
وتعنوله الاملاك شرقا ومغربا بذ احكمت حذاق أهل الملاحم

نلاحظ أن أبا الفضل كان يستثير صلاح الدين فى تباشير مدحه ، ويهيئه نفسيا ، ويحرضه على فتح بيت المقدس ، وتنبأ له بمستقبل عريض مشرق يملك فيه العالم كله ، ودليله ما حكمت حذاق أهل الملاحم .

لقد اطلع الشاعر حقا على ما فى نفس هذا البطل ، وهذا هو ذاته الذى سوف نراه حينما تتحقق امنية الفتح .

ولعله من المناسب أن نستمع الى الشاعر الحكيم قبل عام واحد فى معرض تهنئة بالعافية من مرض عرض له فى قصيدة بعث بها اليه من غزة وهو على حمص ، وجاء فيها قوله يستثيره ويعاتبه على تريثه ويؤكد له أنه المخصوص منذ الازل بهذا الفتح :

فيا ملكا لم يبق للدين غيره وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك فى الشام طائر فقص جناحيه باقصى القوى قصما

خصصت بتمكين فعم العداردى ... فانهم ياجوج افرغ بها ردما

اذا صفرت من آل أصفر سلحة الـ ... مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما

فذا المسجد الاقصى وهمتك العلا ... وعزمتك القصوى ورميتك الصما

فما هو الا أن تهم وقد أتت ... فتوح كما فاض الخضم الذى طما

وان أنت لم ترد الفرنج بوقعة ... فمن ذا الذى يقوى لبنيانها هدما

وليس كفتح القدس منية قادر ... وما ان تلقاها سوى يوسف جزما

يلاحظ أن التحريض يشتد كثيرا ، اذ ان النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ذلك أن الله خصه بقوة وتمكين من لدنه ، وأنه كتب على فريق الشرك الذل والهوان ، ويخلص أخيرا الى تذكيره بالواجب القدس الملقى على عاتقه ، وهو طرد الفرنجة ، فهو البطل الوحيد القادر على القضاء على الباطل ، وهو الذى بيده مقاليد فتح بيت المقدس .

لم يكف الشاعر عن الاستثارة والتحريض ، وقد بلغ المنتهى قبل أسابيع قليلة فى المدحة التى أنشدها بين يديه ، وهي على غاية من الاهمية ، لانها فى الواقع صورة حقيقية عن نفسية صلاح الدين فى هذه المرحلة الخاسمة فى التاريخ الاسلامى ، وما أحلى نداء الشاعر (الله أكبر) ، نداء الجهاد ، وصرخة الكفاح ، ونفير التحرير :

الله أكبر ، أرض القدس قد صفرت ... من آل أصفر ، اذ حين به حانوا

أسباط يوسف من مصر أتواولهم ... من غير تيه بها سلوى وامنان

لهم فلسطين ان يخرج عداتهم ... عنها والا عدت بيض وخرصان

حتى يبيت رتاج القدس منفرجا ... ويصعد الصخرة الغراء عثمان

واستقبل الناصر المحراب يعبد من ... قد تم من وعده فتح وامكان

وجاز بعض بنيه البحر تجفل من ... غاراته الروم والصقلاب واللان

حتى يوحد أهل الشرك قاطبة ... ويرهب القول بالثالوث رهبان

ولابن أيوب فى الافرنج ملحمة ... دلت عليها أساطير وحسبان

ومن أحق بملك الارض من ملك ... كأنه ملك فى الخلق حنان

هذه التباشير القدسية ، وهذه الآمال العريضة بملك العالم كله ، قد سبقت الفتوح والبشائر ، ولابد لنا فى معرض القول من تبيان المقصود بالتباشير والبشائر ،

وان كان اللفظان يؤديان معنى واحدا من حيث الاصل ، بيد أن القدماء قصروا لفظة التباشير القدسية على ما جاء من قول سابق يؤكد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين أو غيره . وأما البشائر فقد قصرت على القصائد أو الرسائل التى كانت تسير حاملة أخبار الفتوح .

تحقق الحلم الاكبر والامل العظيم ، وصدقت تباشير الشاعر القدسية منذ سنين بعيدة ، ففتح بيت المقدس وحملت البشائر السلطانية الى كل مصر ، فهزته نشوة النصر ، وانبرى الشاعر الاندلسى يتغنى فيها بهذا الحدث الاغر .

نختار من قدسيات الشاعر (القدسية الكبرى) ، وبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وخمسين بيتا ، أختار منها قوله :

ووقعة يوم التل اذ قبضت به	جبابرة الافرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سرادق ذلة	ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقى سلاحه	وينساب ما بين السبايا ملهدا
ألم تر للسلطان صدق نذزه	دم الغادر الابرنس فاقتيد أربدا
وباشره بالقتل وسط جنابه	وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الارض مهربا	فادركه الموت المفاجىء مكمدا
وما طرق الاسماع من عهد آدم	كملحمة التل التى تلت العدا

استطاع الشاعر فى هذه الملحمة أن يصف وقعة المقدس بعد معركة حطين ، ووصف لنا هزائم الفرنجة المنكرة ، وأشار الى وفاء صلاح الدين بنذره ، وهو قتل الابرنس بيده ، ان اظفره الله به كما ذكرنا ، والمعروف أنه غدر بقوافل المسلمين ، وشتم الرسول (ص) ، وكان قد أزمع أمره وتأهب للمسير الى تيماء ، ومهاجمة المدينة المنورة حيث يرقد الرسول الأعظم ، وذلك سنة 577 هـ أي قبل الفتح بست سنوات فقط .

والقدسية الثانية هي (الفتحية الناصرية) ونختار منها بعض الابيات ، وهي أيضا من مدائحه المطولة :

فى باطن الغيب ما لا تدرك الفكر	فذو البصيرة فى الاحداث يعتبر
مالى أرى ملك الافرنج فى قفص	أين القواضب والعسالة السمر
والاستبار الى الداوية التأموا	كأنهم سد يأجوج إذا اشتجروا

والنفس مولعة عجبا بسيرتها ... وفى المقادير ما تسلى به السير
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب ... جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا ... تهددوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا ... لدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا ... فى ساعة زال ذاك الملك والقدر
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا ... وحوله كل سيس له زبر
من ذا يقول لعل القدس منفتح ... اليك بل سفر يعقوب له السفر
هذا المليك الذى بشرى النبي به ... فى فتنة البغي للاسلام ينتصر

انسى ملاحم ذى القرنين واعترفت له الرواة بما لم ينمه أثر والملاحظ فى الملحمة القدسية هذه أن الشاعر كان دقيقا جدا فى وصف حال الفرنجة السيئة بعد وقوعهم فى ذل الاسر ، وكان يحرضه على تحرير ما بقى من الثغور الاسلامية تحت حكم الفرنجة ، كما نلاحظ من طرف آخر أن الشاعر كان يخطط للقائد خطة المستقبل ليتم التحرير والتطهير على يديه ، وذكره أن أمامه الفتوح الكبرى فى بلاد الروم والصقلاب والخزر ، وإن النية يجب أن تتجه نحو رومية الكبرى ·

عبر الشاعر عن هذه المعانى فى قصيدة ثالثة يقول فيها :

يا فاتح المسجد الاقصى علي بهم ... وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع ... على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة ... تحكى النبوة فى أيام فترته

تقرر ـ والحق يقال ـ أن حكيم الزمان الاندلسى كان له الفضل الكبير فى حث البطل صلاح الدين وتهيئته نفسيا ليوم التحرير ، وبعث فى طموحه العزم والثبات ليملك الارض وينقذها من ضلال الشرك والوثنية ·

أما الشاعر الرابع الاخير الذى أقف عنده فهو فتيان الشاغورتى ، وقد عاصر هذا الحدث وخلده فى شعره وصور كغيره بطولة صلاح الدين ، ونعته برب الملاحم التى لم يؤرخ مثلها فى قديم الاعصر ، وقد أنشد اياها فى قلعة دمشق ، واستهلها بقوله :

كسرت على كسرى لعدلك دولة ... قصرت مهابتها تطاول قيصر
رب الملاحم لم يؤرخ مثلها الـ ... علماء قدما فى قديم الاعصر

واستنقذ البيت المقدس عنوة — من كل ذى نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ — بيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه — بالمسجد الاقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبده قبلك فاتحا — عمر فانت شريكه فى المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بيـ — ـن الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ — حجر المفضل عند أفضل معشر

أصبح فتح بيت المقدس قصيدة عربية خالدة ، وملحمة اسلامية رائعة ، يتغنى الشعراء بذكرها ويتبارون ، فغدا صلاح الدين بطلا أسطوريا قارنه الشعراء بالاسكندر وقيصر وكسرى ، وقد مضى الشعراء الذين سبقوا التحرير وفى أنفسهم حسرة لانهم لم يروا يوم التحرير الاكبر ، وهم الذين تنبؤوا به قبل أكثر من خمسين عاما ٠

أما الشعراء اللاحقون الذين أتينا على ذكرهم فقد شهدوا بأمر أعينهم مواكب النصر ، ورأوا الفرحة الكبرى تعم البلاد فى كل قطر ومصر ، فلا غرابة ان رأيناهم يكثرون من الاوصاف والمدائح ، حتى انهم توقعوا أن يملك الارض كلها ، وأنه المهدى القائم المنتظر الذى سيملأ الارض عدلا ورحمة بعد أن ملئت ظلما وجورا ٠

أشار الى هذه المعانى الشاعر رشيد الدين أحمد بن بدر النابلى فى قصيدته القدسية التى يقول فيها :

هذا الذى كانت الامال تنتظر — فليوف لله أقوام بما نذروا
يا بهجة القدس اذ أضحى به علم الا — سلام من بعد طي وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رفعت — بعد الصليب به الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدق به — وبين ذى منطق يصغى له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له — شم الذرا وتكاد الارض تنفطر
يا مالك الارض مهدها فما أحد — سواك من قائم للمهد ينتظر
هذا الذى سلب الافرنج دولتهم — وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا

تلك هي صورة عن الصراع الدينى فى هذه الحرب ، والتى كانت تخفى وراءها الاطماع الاستعمارية ليبقى للغرب الاوروبى الهيمنة على البلاد المقدسة التى كانت تداعب أحلامهم عبر العصور ٠

وهكذا نقل صلاح الدين المنبر الذى هيأه مولاه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى الى بيت المقدس وحضر الصلاة فى قبة الصخرة ، والقى قاض دمشق محيى الدين بن الزكى خطبة الجمعة بعد فتح بيت المقدس واستهلها بقوله تعالى :

« **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ••• » والخطبة طويلة ، وهي قطعة أدبية رائعة ، لا يسمح لنا الوقت حتى بذكر شذرات منها •

مهما يكن من أمر فقد وضع صلاح الدين خطة المستقبل سرا فى رحلة صيد مع ابنيه وأخيه الملك العادل • وقال : « أقصد أنا بلد الروم ، وقال لأخيه تأخذ أنت بعض أولادى وبعض العسكر وتقصد خلاط ، فاذا فرغت أنا من بلد الروم جئت اليكم وندخل منها أذربيجان ، ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها »•

هذه خطة صلاح الدين فى المرحلة التى تلى التحرير ، أما خطته الاخيرة فكانت تعيد الينا سيرة العرب الابطال الفاتحين ، وقد أسر بذلك لقاضيه بهاء الدين بن شداد عندما كان يودع أخاه الملك العادل ، قرب عسقلان ، وهو عائد الى مصر ، فقال : « فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره •• » •

ولكن المنية وافته سنة 589 هـ ، ولم تتحقق أمنيته ، اننى أضع هذه الصورة الشعرية الاصيلة من الكفاح والنضال أمام شعراء العصر الحديث ، فلعلهم يجدون فى هذا التراث أصالة الادب العربى القديم الذى هو الاصول الراسخة للادب العربى الحديث ، ولا انفصام ولا خصام بينهما الا اذا أردنا نفي التراث والاصالة لانهما من بقايا السلف الصالح •

وبعد : تلك هي قصة الشعر العربى وأثره الكبير فى معركة التحرير.

مساهمة الفلسفة
فى النهوض بالتربية

د· حنفى بن عيسى
كلية الآداب ، جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم ،

سيدى ، وزير التعليم الاصلى والشوؤن الدينية ،
سيداتى ، سادتى ·

كانت مشكلات التربية ، من اختصاص رجال التربية وحدهم ، لا ينازعهم فيها منازع · وكانوا أصحاب السلطة المطلقة ، فى توجيه الناشئة ، وتلقينها ما يشاءون من القيم ، والمعلومات ·

الا أن التربية ، أصبحت اليوم عنصرا فعالا من عناصر التقدم والرقي ، وعاملا أساسيا من عوامل الثورة الثقافية ·

تلك الثورة التى أشار اليها الشاعر ، فى بداية هذا القرن ، عندما قال :

فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتى ، يحدث العجب العجابا

هذا العجب العجاب ، الذى أشار اليه الشاعر ، هو النهوض من كبوة التخلف ،

(*) محاضرة ألقاها يوم الخميس 25 ربيع الاول 1394 هـ الموافق لـ 18 أفريل 1974 م بقاعة المحاضرات ، قصر حسن ، التابعة للمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ·

واللحاق بركب الانسانية الزاحف ، والاخذ بأسباب التقدم · ولذلك فان التربية أصبحت اليوم مرتبطة ارتباطا وثيقا بمفهوم التنمية ، وبالتالى ، فلا يجوز ـ بحال من الاحوال ـ ان يستحوذ عليها رجال التربية دون غيرهم · فالمشكلات التربوية ، لا تهم المعلمين وحدهم ، بل تهم كذلك المتعلمين ، الذين يهمهم الامر بالدرجة الاولى ، وتهم الآباء الذين يضحون بالغالى والنفيس ، لضمان مستقبل أبنائهم · وتهم كذلك الجهات المحتاجة للاطارات ، لان هؤلاء يعلمون أن ازدهار المؤسسات ، لا يمكن أن يحصل الا عن طريق التربية والتعليم ، ويهم كذلك مديرى الشركات ، العامة ، والخاصة ، ورؤساء المصالح ، فى الادارات والمؤسسات ، لانهم يدركون بأن المردود مرتبط ارتباطا وثيقا بالتربية المستمرة · وهكذا نجد أن الاهتمام بالتربية ، لم يعد محصورا فى نطاق الجهات المعنية مباشرة ـ أي رجال التربية وحدهم ـ بل أصبح موضوعا يعكف على دراسته المربون ، والمفكرون ، والفلاسفة ، والخبراء ، والعلماء من مختلف فروع المعرفة · وهذا ما دعا منظمة « اليونيسكو » الى تاليف لجنة اسمتها « اللجنة الدولية للنهوض بالتربية » وأسندت رئاستها الى الرئيس الفرنسى السابق السيد « ادقار فور » وحشدت لها أعلى الكفاءات من مختلف أنحاء العالم ، ومن مختلف التخصصات ·

وهنا نتساءل : ما هو دور الفلسفة فى النهوض بالتربية ؟

أعتقد ان عمر بن عبد العزيز (I) هو الذى قال : « علموا أبناءكم ، فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » واذا أصح هذا القول ، فان المربى عليه دائما ، أن يدخل فى حسابه المستقبل ، كعنصر أساسى · وان يتخيل صورة الانسان الذى يريد ان يعده لذلك المستقبل . وان يبتدع ـ باستمرار ـ طرائق تربوية ، وأساليب جديدة فى التعليم . وعلى هذا فالابتداعات ، هي قوام التربية الحديثة ، وهذا ما ركزت عليه اللجنة الدولية السابقة الذكر عندما دعت الى انشاء مركز دولى للابتداعات التربوية ، للتعاون بين سائر الدول ، وتبادل المعلومات فى هذا الشأن · والابتداع فى نظرنا معناه :

اولا : الاحتفاظ من التربوى بما هو صالح ·

ثانيا : اعادة النظر فيما كان بائدا وفاسدا من ذلك التراث ·

ثالثا : التفكير باستمرار فى وضع طرائق جديدة ·

ان دور الفيلسوف ـ فى نظرنا ـ يتلخص فى التفكير ودفع الناس الى التفكير · ولهذا فان الابتداعات التربوية ، تستمد قوتها وحيويتها من الفلسفة التى يجب ان

تغذيها دوما بالافكار · لان تيار الفكر ، متى انقطع ، كان مآل التربية الى الخراب ، وسارت الحضارة الى الانحطاط والاندثار ·

يقول جون ديوى المربى الشهير : « ان أساس كـل فلسفة ، هو فلسفة التـربية وقوامها دراسة كيفية تشييد صرح الحضارة فى العالم » ·

ولقد يبدو هذا الكلام مجرد ادعاء · ولكن اذا نظرنا الى الاقبال الشديد عـلى دور العلم · واذا نظرنا الى الضغط الشعبى المنقطع النظير عـلى أبـواب المدارس ، والثانويات ، والجامعات · فلا يسعنا حينئذ ، الا أن نستنتج بأن أغلب الشعـوب مقتنعة بكلام « جون ديوى » وأن الدروب التى تؤدى الى الحضارة ، هي دروب التربية والتعليم فمما يسترعى النظر مثلا ، أن جميع الدول متجهة اليوم ، نحو تسجيل جميع الاطفال فى المدارس ، الا أن التعليم المدرسى النظامى ، لم يعد وحده يكفى · فلابـد من التعليم خارج نطاق المدرسة · ويتم هذا فى المعمل ، فى المؤسسة ، فى المزرعة · ولابد أيضا ، من تنظيم برامج تربوية مذاعة أو متلفزة · ولابد من دروس لرفع المستوى واستكمال التعلم · ولابد من الدورات التدريبية · ولابد مـن الملتقيات ، والدروس بالمراسلة ، ودروس محو الامية ، وما الى ذلك من أنواع التعليم الذى يحصل خارج نطاق المدرسة · بحيث أن المرء لا يسعه الا ان يلاحظ بأن مفهوم البيداغوجيا (يعنى : فن تعليم الطفل) قد تغير ، لانه بات لزاما أن يحل محله مفهوم لاندراغوجيا (فـن تعليم الانسان) وهكذا أصبح الحديث الشريف الذى يوصى المرء بأن يتعلم من المهد الى اللحد ، أصبح هذا المبدأ حقيقة ملموسة · وصرنا نسمـع مـن ينادى بالتربية المستمرة ، ومن يقول بأنه لا يجوز أن يستأثر الاطفال وحدهم بنفقـات الدولة · لان الكبار أيضا لابد أن يحظوا بالتفات الدولة اليهـم ، وصرنا نسمع كذلك مـن يقول ـ لتوضيح مفهوم التربية المستمرة ـ بأن الانسان لا يولد تمام الولادة الا عندما يموت · أي عندما يستكمل مقومات ذاته · فالولادة بأتم معنى الكلمة لا تتم الا عندما يلفـظ الانسان انفاسـه الاخـيرة ، بعد تفتيـق مواهبه ، وتحقيق ذاتـه من جميـع النـواحى ، الدينية ، والاخلاقية ، والاجتماعية ، والعلميـة ، والتقنيـة ، والفنيـة ، والمهنيـة ، واليدوية ، والبدنية ، وهناك اتجاهات أخرى تدعو الى ما يلى :

اولا : تعديل البنيات التربوية ، لفتح مجال أوسع أمام المتعلمين ·

ثانيـا : العناية بالحالات الفردية فى التعليم ووضع ما يسمى بالبرنامج الملائم للفرد من حيث الزمان والمكان ، والمحتوى ، والسرعة ، فهـذه العوامل الاربعة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار فى وضع البرنامج ·

ثالثـا : توعية الطلبة بمشاكلهم ، وحقوقهم ٠

رابعـا : القضاء على الانظمـة التربوية القـائمة عـلى السلطـة ، وتعويضها بالمؤسسات القائمة على مبادىء التسيير الذاتى ، والمسؤولية والحوار ٠

ومن المبادىء التى اقرت ـ ايضا ـ مشاركة الجهات المحتاجة الى الاطارات ، فى وضع سياسة المدارس ، والمعاهد ، وفى تسييرها ٠ منها الشركات على سبيل المثال ٠ وكذلك ، اقرار مبدأ الديمقراطية واللامركزية ، وتجريد العمل التربوى مـن الطابع البـيروقراطى ٠

ومن هذه المبادىء ايضا ، رسم أهداف تربوية أخرى من النوع التالى تنادى بها التـربية الحـديثة :

« تعلـم لتكـون ، « تعلـم كيف تعيـش »

« تعلـم كيف تتعلـم بنفسـك » ٠ « تعلـم تنتقـد نقـدا بناء ».

« تعلـم كيف تنمـى مواهبـك » ٠ هذه بعض شعارات التربية الحديثة ٠

اذن هذه جملة من المذاهب والنظريات ، والآراء فى شؤون التربية ، وهي ـ كما ترون ـ على جانب كبير من الاهمية ، لانها تتعلق بمصير الانسان ٠ فهل يصـح أن يظـل الفيلسوف بمعزل عنها ؟

وهنا يرد السؤال : هل الفلسفة لاحقة بالتربية ، أم رائدة لها ؟ هل هي محافظة أم تقدمية ؟ وبعبارة أخرى : هل يقتصر دور الفيلسوف على وضع التطبيقات التربوية فى قالب فكرى ؟ أم أن عمله هو التوقع والتبصر ، وتوجيه العمل التربوى ، واستصلاح ما يراه فاسدا فى الوضع التربوى ، بالنقد البناء ؟

أي أن هناك موقفين للفيلسوف ، اما أن يلاحظ ما يجرى ويصفه دون أن يتخـذ منه موقفا ، والموقف الثانى للفيلسوف هو أن لا يقتصر على الوصف وحده ، بـل يجب عليه أن يتدخل ، وان يقول كلمته وان يقول بأن هذا فاسد وهذا صـالح ، وهذه القيم التى تدرس فى المدارس لا تصلح وهكذا ٠ لابد هنـا مـن أن نـلاحظ بأن كتاب جون ديوى (الديمقراطية والتربية) لم يصدر الا بعد قرن وربع قرن من خبرة مرت بها أمريكا فى المجال التربوى ، فكأنه تسجيل وتوضيح لما عرفه من شؤون التربية فى بـلاده ، لا اكثر ولا أقـل بمعنى أن جون ديوى لـم يقتصر عـلى وصـف الاوضاع

التربوية فقط · اما انا فاعتقد بأن الفيلسوف لا يجوز أن يقتصر على الملاحظة والتسجيل ، بل لابد بأن يتدخل ويفيد بنى قومه فى هذا المجال الحيوى ، الذى يتعلق بمصير الانسان ·

أول ما يلاحظه الفيلسوف فى شؤون التربية ، أن النظريات مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف · وبعض المربين يرون مثلا أن العصر الذى نعيش فيه ، يتميز بالتبدل والتغير ، فيجب علينا اذن أن نواجه العصر بتربية تقدمية تساير تطورات العصر ·

ويرى البعض الآخر أن هناك قيما ثابتة لا تتغير ، وأن مهمة المدرسة هي غرس تلك القيم فى الاطفال ، اذن الفيلسوف هنا يواجه مشكلة التغير من جهة ، والثبوت على حالة واحدة من جهة أخرى · غير أن هذا التضارب فى الجهات التربوية ، لا ينبغى أن يحول دون البحث عن القاسم المشترك فى الشؤون التربوية ، ودور الفلسفة يتمثل فى البحث عن هذا القاسم المشترك ، أو المبدأ العام الذى تنعقد حوله النظريات التربوية وأول مساهمة تتقدم بها فلسفة التربية ، هو انتقاد ما يسمى بالحس المشترك ، فالحس المشترك هو مجموع الاعتقادات ، والآراء الشائعة بين الناس ، وهي آراء توجه سلوكنا ونثق بها ثقة عمياء ·

وكثيرا ما توقعنا فى خطأ مبين ، وهنا نلاحظ أن لكل معلم ، ولكل مدير ، ولكل مسؤول فى التربية والتعليم ، لكل واحد من هؤلاء فلسفة خاصة فى شؤون التربية · ولا شك أن هذه الفلسفة البسيطة ، كافية لحل المشاكل السهلة ، وتصريف شؤون المدرسة ، وانها صالحة كنقطة انطلاق · ولكن الملاحظ أنها عاجزة عن وضع سياسة تربوية ، ورسم استراتيجية مبنية على معطيات الواقع ، وعلى الاحتياجات المتلمحة فى المستقبل ، وهنا يرد السؤال : هل نقول بفلسفة واحدة للتربية أم بعدة فلسفات ؟ وأبادر للاجابة على هذا السؤال لاقول ، أنه لا يمكن ان توجد عدة فلسفات على درجة واحدة من الصحة ، فتعددها يعنى أول ما يعنى ، أنها متفاوتة فى الصلاح ، وفى تجاوبها مع مقتضيات الواقع العملى ·

فالخلاف اذن بين النظريات التربوية ، موجود لا سبيل الى انكاره ، ولكنه يمكن التغلب على المازق الفلسفى بالرجوع الى القاسم المشترك ، وهو الانسان ، فالانسان عاقل ، والعالم الذى نعيش فيه خاضع لقوانين العقل ، وبالتالى فانه يمكن حل المشاكل المتعلقة به ، مهما كان نوعها ·

ونحن اذ ندعو الى تحكيم العقل فى الشؤون التربوية ، انما نحاول أن نعالج هذه الشؤون ، معالجة الفيلسوف الشاملة · وهذه المعالجة تقتضى نقد الاعتراضات

الاساسية ، فالفيلسوف مثلا يمكن أن يدلي برأيه في محتوى البرامج الدراسية ، وقوام هذه البرامج كما هو معروف هي الوقائع من جهة (أي المعلومات التي تحفظ) والقيم من جهة أخرى ، هناك شيئان في البرامج : الوقائع ، والقيم ٠

فالوقائع من اختصاص العلم ، أي أن العالم هو الذي يعطي رأيه فيما اذا كانت صحيحة أم لا ، والقيم من اختصاص الفلسفة ، ان المدرسة تلقن بعض المعلومات المتصلة بالوقائع وتغرس بعض القيم في نفوس الناشئة ، ولا شك ان المسؤول التربوي ، يستطيع أن يدرج تلك المعلومات وتلك القيم في منهاج دراسي ، وان يبرمجها حصصا ومقادير ٠ يتشربها ويتشبع بها المتعلم تدريجيا ، درسا فدرسا ٠ أما السؤال عما اذا كانت هذه القيم هي التي يجب أن تكون ، فهذا من اختصاص الفيلسوف ، ولا شك أن نقد القيم شديد التعقيد ، لتداخل المتحولات مع الاطار الثقافي والاجتماعي ، الى درجة أنه يصعب أحيانا عزلها ٠ ولابد هنا من الاشارة الى أن احجام الفيلسوف عن نقد بعض القيم الراسخة في النفوس ، كثيرا ما فسح المجال لحركات الشغب وللمناهضة والمطالبة بالتغيير الجذري ٠

ونجد في كثير من البلدان ان الفلاسفة لا يقومون بمهمتهم المتعلقة بنقد القيم التي تعلم في المدارس ، فحينئذ ، ـ اذا كان الفيلسوف قد احجم عن القيام بمهمته ـ يتكفل بهذه المهمة قوم آخرون ، لا يحكمون العقل ـ للاسف الشديد في كثير من الاحيان ، ونجد هذا الاتجاه لدى حركة المناهضة ، وكذلك لدى الحركة التي يتزعمها في أوروبا ايليتش ـ من المفكرين ومن رجال التربية ـ وتقوم هذه الدعوة ـ أي دعوة المربي ـ الى تخليص المجتمع من الطابع المدرسي ٠ ونقطة الانطلاق عند هؤلاء ، هو توجيه انتقادات شديدة للتربية كمؤسسة ٠ فالتربية عند هؤلاء تشكل عاملا مباشرا من عوامل التناقضات الاجتماعية يقال : المدرسة لا تساعد على الانسجام ، بل تعمل على زيادة التناقضات ـ أي أن الغني قد يصبح أكثر غني ، والمثقف قد يعمل على المحافظة على الثقافة في اطار أسرته ٠

اذن التربية في نظر هؤلاء عامل من عوامل التناقضات الاجتماعية ٠ ولذلك فهي لا تستطيع أن تحقق غايات التربية المثلى ، التي تخدم الانسان بل هي تخدم أغراض المجتمع القائم على الظلم والاستيلاب ، والعبث بالكرامة الانسانية ٠ ولذلك يقول ايليتش بأنه ينبغي قلب أوضاع المؤسسات والغاء المدرسة ، حتى يتمكن الانسان ، بعد استعادة حريته في المجتمع المتخلص من المدرسة ، من استرجاع سلطته على

المؤسسة · يقال أن المدرسة خلقت من أجل الانسان ، ولم يخلق الانسان من أجـــل المدرسة ـ وبطبيعة الحال ان آراء ايليتش وجماعته ، لا تلائم أي نظـام من النظـم الاجتماعية ، والسياسية الراهنة · أمـا الحـركة المناهضة التى نظمهـا المتعلمـون أنفسهم ، فقد نشأت بعدما لاحظ هؤلاء أن النظام التربوى ، لا يزال جامدا ، ولا يزال خاضعا فى بعض البلدان للنخبة المثقفة المنبثقة عن الطبقة البورجوازية · فهي التى فرضته ، ووضعت قوانينه ، ولاحظوا أيضا أن هناك انفصالا تاما ، بين نوع بائد من التعليم ، وبين حقائق هذا العالم · ـ أي أن المدرسة تعلم شيئا وحقائق العالم شىء آخر ـ ان المناهضة التى قام بها الطلبة ، سوف تترك أثرا عميقا فى مجرى التاريخ · لانها استطاعت ، بما فيها من انتقاد جماهيرى للوضع التربوى ، ان تنفذ الى ميدان كان محصنا تحصينا قويا ، وفى السابق لـم يكن أحد يجـرؤ على انتقاد الاوضاع التـربـويـة ·

أما حركة المناهضة هذه فلاول مرة أحدثت ثغرة فى هذا الحصن المنيع التربوى ورغم ما اتسمت به حركة المناهضة من فوضى ، وأحيانا من سذاجة الرأي ، وأحيانا أخـرى من عنـف كما كان الامـر فى فرنسـا سنة 1968 فانها استطاعت مع ذلك ان تزلزل كيان الانظمة التربوية · ما هي العبرة التى نستخلصها من هذه الحركات المناوئة ، المطالبة بالتغيير الجذرى ؟ العبرة هي أن الفيلسوف بعدما تخلى عن دوره فى انتقاد القيم وتمحيصها ، وتبيان الاصيل والزائف منها · حل محله قوم آخرون ، قـل مـا يحكمون العقـل فيما يقولون ويفعلون ، ويبـدو لى أن الفيلسوف ، لـم يعد ينهـض بمسؤوليته تجاه المجتمع ، فى الدعوة الى الاصلاح وانتقاد أوضاعه وتشخيص دائـه ووصف الدواء الناجع لـه فشتان بين سقراط الذى كمـا قال شـوقى : (أعطـى الكأس وهي منية شفتى محب تشتهى التقبيلا) بمعنى انه شرب السم ، ومات شهيد العـلم والفلسفة ·

والحقيقة أقول شتان بين سقراط الذى فضـل أن يمـوت عوض أن يـداهن · شتـــان بــين سقـــراط وبـــين الفـلاسفـة مـن عصـرنا ، المقطـوعين عـن حقـائق شعبـهم ، الغافلـين كـل الغفلـة عمـا يختلـج فى نفـوس الجمـاهير · وهكذا · فعوضا من أن يكون الفيلسوف فى الطليعة يرشد الناس الى ما فيه صلاحهم ، اذا به اليوم كغيره من الناس ، قانع بوظيفته كأستاذ ، أو كموظف لا يكاد يحيده عن تلك الوظيفة قيد أنملة · ان المسألة تتعلق بترقية الانسان ، وباستكماله مقومات ذاته ، وبتحقيق هويته ، وتفتيق مواهبه ·

ولذلك فلا يجوز بحال من الاحوال ، أن يظل الفيلسوف بمعزل عن شؤون التربية ٠ وهناك منطلقات ثلاثة ، لابد للفيلسوف من أن يبدى فيهما رأيه ٠ المنطلق الاول : هو أن التربية تسبق التنمية ، بل هي الشرط الاساسى للازدهار الاقتصادى ٠ وهذا لم يحصل الا فى العصور الحديثة ، لان الناس لم يكونوا فى الماضى يهتمون بالشؤون التربوية ، الا بعد حصول الازدهار الاقتصادى ، فى السابق كانوا يتعلمون بعد الازدهار الاقتصادى ، اما الآن فى العصور الحديثة لازم اولا نضع الاسس التربوية ، ثم بعد ذلك بواسطة التربية يتم الازدهار الاقتصادى ٠

المنطلق الثانى : هو أن التربية تخطط للمستقبل ، فهي تعمل لاعداد رجال الغد المنشود ، لكي ينهضوا بمسؤوليات فى مجتمعات لم تخلق بعد ، لقد كان الهدف التربوى محصورا فى ربط ماضى الشعب بحاضره ٠ أما اليوم فلابد من رسم صورة المستقبل كما نريدها ان تكون ٠ ولابد من نتلمح تلك الصورة ، ومن هنا نشأت فكرة الصورة المتلمحة ، أو (الروفيل) اي أن المخطط التربوى يجب أن يضع ما يسمى بـ (البروفيلات) اي الصور المتلمحة ٠

ما هو الانسان الذى نريد أن نكونه للمستقبل لسنة 1980 أو سنة 2000 مثلا ؟

المنطلق الثالث : هو أن المجتمع يرفض بعض المتخرجين من المؤسسات التربوية ويستغنى عنهم ٠ فهناك أحيانا تناقض ملحوظ بين عدد المتخرجين ، وبين ما يحتاج اليه المجتمع ٠ فقد كان النظام التربوى القديم مقصورا على الخاصة من الناس ، الا أن التعليم ما لبث أن أصبح جماهيريا ٠ وقد نجم عن تزايد عدد الطلبة ، أن النظام الاجتماعى مضطر لرفض بعض المتخرجين ، اذا كانت مؤهلاتهم لا تلبى الاحتياجات المباشرة لذلك المجتمع ٠ فلابد اذا من وضع استراتيجية محكمة لوضع تقديرات صحيحة بالنسبة للاحتياجات فى الحاضر والمستقبل ٠

واذا سلمنا بهذه النقاط الثلاث كمنطلقات للعمل التربوى ، فان الفيلسوف يجب عليه ان يضع القاعدة الفكرية لذلك العمل وان يتقدم بنظرية يبدى فيها رأيه الصريح ، وأن ينتقد الوضع التربوى نقدا بناء ، وأن يناقض عند اللزوم الافكار الشائعة ، ومن جملتها ما يلى :

اولا : كان يعتقد بأن التعليم لا يتم الا فى المدرسة ، وقد آن الاوان أن نعوض عن كلمة التعليم (بالتعلم) وبذلك فان المدارس ينحصر دورها فى تعلم المرء كيف يتعلم

بنفسه ، متى أراد ، وحيثما أراد ، وبالسرعة التى تناسبه · وبهذا الاعتبار فان عملية التعلم ، يمكن أن تتم على فترات متقطعة ، وأن تستمر طوال الحياة ·

ثانيا : لا يزال أكثر الناس يعتقدون ان أفضل فترة فى حياة الانسان للتعلم تقع فى حدود الطفولة والشباب ، وان المعلومات التى يحصل عليها فى هذه الفترة من العمر ، سوف تبقى صالحة على مدى الحياة · وهذا وهم وخطأ كبير ، المعلومات لا تصلح الا لفترة معينة ، ثم بعد ذلك يجب على الانسان أن يستكمل معلوماته ·

ثالثا : يعتقد البعض أن مشاكل التربية يمكن ان تعالج بطريقة علمية رزينة متجردة من التخمينات الفلسفية الواهية · فبعض الناس يقولون نحن فى غنى عن الفلسفة فى معالجة قضايا التربية ويمكن أن نستعين بالعلم فقط ، لان العلم موضوعى ، فالفيلسوف يسلك سلوكا لا يناسب هذه القضايا · وهم بذلك ـ أي هؤلاء الناس ـ يضعون العلم والفلسفة على طرفى نقيض يقولون ان العلم فيه مجال للاتفاق ، وأما الفلسفة ، فالمجال فيها واسع للخلاف ، فهم يقارنون بين المعالجة الفلسفية للقضايا التربوية ، والمعالجة العلمية للقضايا التربوية ، يقولون : يمكن على صعيد العلم أن نصل الى الاتفاق ، وأما على صعيد الفلسفة فلا يمكن ان نصل الى اتفاق ، بل هناك دائما خلاف · العلم يحلل القضايا التربوية ، والفلسفه تركبها ـ أي أن هناك تحليل بالنسبة للعلم وهناك تركيب بالنسبة للفلسفة · العلم استقرائى ، فى حين أن الفلسفة استنتاجية · العلم ذرائعى ، نفعى مرتبط بمصالح الناس ومأربهم فى هذه الحياة ، فى حين أن الفلسفة مثالية ، ومتنكرة أحيانا للواقع · العلم متحرر وتقدمى بينما الفلسفة جامدة ومحافظة · وينتهى هؤلاء الى القول ، بأن التفكير الفلسفى اسهل من التفكير العلمى ، وان دور الفلسفة فى حل المشاكل يتضاءل كلما كثرت الحلول العلمية · أي نستطيع أن نقول أن القرن العشرين وهو عصر الثورة العلمية ، ولذلك كثير من الناس يعتقدون بانه يمكن الاستغناء تماما عن الفلسفة ـ فهل يصح بعد هذا ان نستنتج بانه لا حاجة الى الفلسفة فى حل القضايا التربوية ؟

الحقيقة ان العالم اذ يتوخى الدقة والموضوعية ، مضطر فى نفس الوقت لان يضحي بالاتساع والشمول ، فكلما توصل العالم الى حل قضية تربوية ، سوف يجد نفسه أمام قضايا أخرى مطروحة بحيث ان القضايا الجديدة ، تزعزع ثقتنا بصحة الحلول القديمة العلم قد يتوصل الى حل بعض القضايا ولكن كلما حل قضية ، سوف يجد نفسه أمام قضايا أخرى ·

وسآتى بمثال من قضايا اللغة : تجدون ان فلسفة النحو يمكن ان تساهم فى حل قضايا النحو ، فمن المعروف ان الفعل الماضى مبنى ، وان الفعل المضارع معرب ، وهذه القاعدة ليست مطردة ، باعتبار ان الفعل المضارع فى حد ذاته ، تارة يكون مبنيا ، وتارة يكون معربا • يكون مبنيا حينما يتصل بنون النسوة ، واذا اتصل بنون التوكيد الشديدة • اذا هذه القاعدة ليستمطردة • ففلسفة النحو تستطيع ان تتجاوز هذا المازق ، فهي تعالج المشكلة على مستوى الفلسفة فتضع قاعدة عامة تقول : ان الماضى شيء مضى وانتهى ولا يمكن تغييره اذا فهو مبنى لا يتغير ، اما المضارع ، فهو اما ان يقع الآن ، او سوف يقع ، وبالتالى تستطيع ان تغيره أن تتدخل بارادتك فتغيره ، اذا من الممكن جدا ان يتغير المضارع أي أنه معرب وليس مبنيا •

ثم الفلسفة تضع هذا الحل الشامل للمشكلة ، ولا تنظر الى هذه المشكلة التى قد يتعرض لها عالم النحو • فالفلسفة تستطيع أن تضع حلا شاملا لبعض القضايا التربوية • لذلك تبقى الحاجة ماسة الى فلسفة تسمو على العلم فى المجالين ، النظرى والعملى ، وتهتم بالاسباب البعيدة ، وتتقدم بحلول شاملة ، يمكن ان يطمئن اليها الانسان •

هناك أمر ثالث يمكن ان ينتقد بالنسبة للافكار الشائعة ، وذلك أن بعض الناس يعتقدون ان العملى هو العمدة ، وأنه مقدم على النظرى ، لان النظرى هو دائما موضع للجدال والخلاف ، وقد نتج عن ذلك على الصعيد التربوى اعتقاد راسخ ، بأن الدروس النظرية لا تستحق الحضور ، وأن الدروس التطبيقية ، هي وحدها الجديرة باهتمام طالب العلم ، وهذا هو المطبق فى كثير من الجامعات • بمعنى أن الدروس النظرية يمكن للطالب ان يغيب عنها • أما الدروس التطبيقية فيجبر على الحضور ، وأعتقد أن هذا خطأ تربوى فادح بالنسبة للدول النامية واذا صح هذا بالنسبة للدول المتقدمة ، باعتبار أن الفكر فيها متقدم ، ولديهم فلاسفة كثيرون ولهم وباع طويل فى الفكر • فلا يصح هذا بالنسبة للدول النامية التى نجد فيها ضحالة الفكر ، أو الفقر الفكرى • فكيف نحرم الطلبة من الاحتكاك بالاستاذ • واذا شئنا ان نناقش المسألة من الإساس ، فاننا نقول بأن النظرى هو الكمال ، وان العملى هو الصورة ، وأن الخطأ قد يتسرب لا محالة الى النظرى • الا أن الواقع العملى ، قد يكون احيانا هو الخاطىء المتناقض • ولذلك فلا نستطيع ان نتصور كيف يمكن ان ينصرف الطلبة عن الدروس النظرية فى البلدان النامية • خاصة أن هذه البلدان فى أشد الحاجة الى الفكر • فكيف يمكن الاستهانة

بالنظرى فى هذه البلدان المعروفة بضحالة الفكر ، وجدب القـرائح ، وكيف يمكـن للطالب أن يشحذ فكره اذا لم يحتك بالاستاذ ولم يستمع اليه ولم يناقشه ، والحقيقة أن أزمة الفكر فى العالم العربى تكاد تشبه أزمـة الوقود فى العـالم الغربى كمـا أن الوقود قوة تحرك الآلات فكذلك الفكـر يدفـع الى النشاط ويولـد المشاريع فالفكرة الواحدة قد تكون منطلقا لعمل المهندس المعمارى ، والنجـار ، والكهربائى ، والمحامى ، والاستاذ ، والطبيب ، هؤلاء كلهم يشتغلون فى المجال العملى ، انطلاقا من الفكـرة الواحدة . ولذلك فان الاستهانة بالدراسات النظرية فيها قتل للفكر ، وتجميد للنشاط ، من حيث المنطلق . وأخيرا من الامور التى يمكن ان ينتقد بها الحس العام أو الافكار الشائعة وهـو مـا يـلى :

ان حرص الدول المتخلفة على اللحاق بالدول المتقدمة فى العلم والثقافة ، لا ينبغى ان يكون على حسابْ سعادة الانسان وسعيه الدائب فى استكمال مقومات ذاته . أي أن بعض الدول النـامية مشهورة اليوم باللحاق بركب الدول المتقدمة . وكثيرا مـا تتناسى أولوية الانسان فى هذا العالم . وذلك أن الهدف الاسمى ، الذى ينبغـى ان تسعى اليه التربية الاسلامية هو استكمال مكارم الاخلاق ، عملا بقوله عليه الصلاة والسلام : (بعثت لاتمم مكارم الاخـلاق).

ولقد تساءل بعضهم عما اذا كان ينبغى أن نجعل التربية قائمة على بعد واحـد هو البعد الطبيعى (أن نعترف لما وراء الطبيعة من دور أساسى أو ثانوى فى تحديد السياسة التربوية ، فبعض التقدميين مثلاِ يرون بأن هناك بعدا واحدا لعالم التربية ، وهو الطبيعة ونحن نرد على هؤلاء فنقول : بأن نكران ما وراء الطبيعة ، يتضمن فى حد ذاته نظرية حول ما وراء الطبيعة . وأن ما وراء الطبيعة يمكن ان يغذى النفوس ، بقوة تحدث المعجزات ومن المعروف أن غرض المسلمين من التربية لم يكن دنيويا محضا ولم يكن دينيا محضا فقد كانوا يرمون الى اعداد المرء لعملى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : « **وابتغ فيما آتاك اللـه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيـا** » وروي عن النبي صلى عليه وسلم أنه قال : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » وقد امتدح احد الشعراء (المأمون) بقصيدة قال فيها :

تشـاغل النـاس بالدنيـا وزخـرفها وانت بالدين عـن دنيـاك مشغـول

فاستنكر المأمون قوله هذا ولم يعجبه هذا المدح ، قـال : (ويحك جعلتنى عجوزا فى محرابها ومعها سبحتها ، هلاِ قلت كما قال جرير فى عمر بن عبد العزيز :

فلا هـو فى الدنيا مضيـع نصيبـه ولا عرض الدنيا عـن الدين شاغله

بمثل هذه الفلسفة يمكن للتربية ان تحرر القـوة الكامنة فى نفوس الملايين مـن البشر وان تحولها الى طاقة مبدعة ، وأن تؤكد مـن جديد أسبقية الانسان فى هذا العالم الذى أخذ يتنكر للقيم الانسانية ، فهذه منطلقات للمزيد من النقاش ومن هنـا ننهى محاضرتنا ، والسلام عليكم ورحمة الله ٠

تشجيـــع الاختـــراعيـــة والابتكـــار
فى البلـــــدان الناميـــــة (1)

يحيى زكرياسن (*)
ترجمة : د. خير اللـه عصار
جامعة عنابة



مما لاشك فيه ان القوى الانسانية فى حقلى الاختراع والابتكار هي اثمن ما تمتلكه البلدان النامية من الموارد الطبيعية ليست هذه المـوارد موجودة عنـــد البعض ومعدومة عند البعض الآخر ، بل هي موزعة بين الافراد توزيعا متناسقا ومتوازنا ، ولكنهـا ، الا فى حـــالات نادرة ، غير مستثمرة استثمارا حسنا على العموم . لقد اطلـــق اصطلاح (عدم تشغيل القوى) على هذه الحالة من عدم الاستثمار لهذه القدرات . وفى رأيـــى انه آن الاوان كي نضع حدا لهذا الوضع فى اقرب اجل .

(1) كلمة القاها فى المؤتمر العالمى حول نظام تسجيل الاختراع واهميته بالنسبة للبلدان النامية ، والذى عقدته المنظمة العالمية للملكية الفكرية فى كولومبو ، سرى لانكا من 21 الى 24 فبراير 1977 .

(*) السيد زكرياسن ، مسلم دانمركى ، يشغل منصب مدير مكتب استشارى هندسى لتنمية Zac-Consult فى كوبنهاغن ، الدانمراك . وقد شـارك فى الملتقيـين العاشر والحادى عشر للفكر الاسلامى فى عنابة وورجلان .

الا التنمية الاجتماعية والاقتصادية الموجهة ، عملية تفتح من الداخل ، ولا يمكن أن تتم عن طريق نقل واستيراد التكنولوجيات من البلدان الاكثر تقدما مهمـا اسبغنا على هذه العوامل من اهمية • ولهذا يجب الاسـراع مـا امكـن فى تشغيل الطاقات الانسانية الموجودة فى البلدان النامية •

ثمة عناصر جوهرية للتنمية الاصيلة ذات مظاهر مختلفة ، لا تتم بدونها نـذكر منها : المشاركة الناشطة والبناءة فى الفعاليات التكنولوجية والسيطرة عليها واختيار المناسب منها ثم تكييف التكنولوجيات المستوردة حسب حاجات كل بلـد ، واخيرا التطوير الفعال للتكنولوجيا الحديثة •

ان الحاجة ماسة لوضع حد لحالة عدم تشغيل القوى الانسانية فى حقلي الاختراع والابتكار التكنولوجيين ان العمليـات النفسيـة والتربوية التى يتضمنها الاختـراع والابتكار قد اصبحت واضحة لدرجة من الممكن تعليمها كمواضيع محددة فى الجامعات والمؤسسات التربوية والصناعية مهما كان مستوى المعرفة عند المتعلم ، رجلا كان او امـرأة او طفـلا •

سأعود بعد قليل الى هذه النقطة كي افيها حقها من الشـرح الموسع • امـا الآن فانى التفت للاجابة على السؤال التالى :

مـن هـم المختـرعـون ؟

من هم المخترعون ، وفى اية بيئـة ينشطون ؟

فى محاولتى للاجابة على هذا السؤال ساعتمد على مراجع صدرت فى البلدان الصناعية • ولن يقلل هذا من اهمية طريقة المعالجة بل ان هذا سيجعل النتائج التى نصل اليها اكثر تشويقا بالنسبة للبلدان النامية •

اجل ، فقد تصورت الحكومات ومعها الكثير من الناس العاديين ان القسم الاهم من المخترعات الجديدة ذات الاهمية هو نتيجة لعمـل فريق مـن العلماء والمهندسين (لا يعـرف النـاس اسماءهم) يعملون فى مختبرات تطـوير التكنولوجيا المستقبلية ، والتى تملكها الشركات الكبيرة لكـن عددا من الدراسات التى تمـت خلال العقدين الماضيين ينفي صحة هذا التصور • فلقد ثبت ان المبادرات الرئيسية فى عدة حقـول صناعية ، قد انجزت على ايدى مخترعين مستقلين بواسطة شركات صناعية صغيرة لعب مديروها انفسهم دورا هاما فى ابراز الاختراع الى حين الوجود •

لننظر الآن الى ما يقوله الباحثون فى هذا الصدد :

يذكر مؤلفو (2) كتاب « منابع الاختراع » ان أكثـر مـن نصف المخترعات التى أنجزت فى هذا القرن قد جاءت مـن طرف مخترعين يعملون لانفسهم أو يعملون فى شركات صغيرة · كما أن ايلكارت اثبت فى أحد بحوثه على الصناعة البريطانية ان عدد المخترعين الذين يعملون بامكانيات محدودة يصل الى 8o ٪ من مجموع المخترعين البارزين · كما أن هذه النسبة ذاتها (أي 8o ٪) من مجموع الاكتشافات التكنولوجية الهامـة قد كان نتيجة لصرف 5 ٪ فقط مـن مجموع المبالغ التى خصصت للبحـوث ولتطويرها ·

يقول م· ج· بيك (3) ان المنتجين الكبار فى حقل صناعة الالومنيوم الامريكية قـد اخترعوا فقط 7/1 مـــن مجموع الاختراعات الهـــامة ذات الصلة بلحام الالمنيوم ، تشكيله ودهنه · اما فى الصناعة البترولية فيصف البنوس الوضع كما يلي : « لقـد تحققت معظم الانطلاقات الفكرية الجذرية على أيدى مخترعين يعملون على هامـش الصناعة البترولية ، ولم يتحقق الا القليل من هذه الانطلاقات الجذرية على أيـــدى اناس يعملون فى الشركات البترولية الكبيرة · فاذا احصينا المخترعات الرئيسية فى مجال تحليل البترول (؟) Petroleum cracking لا نجد الا مخترعا واحدا قام بـــه موظف يعمل فى شركة كبيرة » · أما البقية فقد قام بها مخترعون مستقلون ·

يقول د· هامبرغ (4) لا وجود فى الولايات المتحدة لابتكار واحد ذى أهمية جـاء من صميم صناعة الفولاذ ومن طرف العاملين فيها ·

ونحن نـرى ان هامبرغ يجانب المغـالاة كثيرا عندما يدعى أيضا ان المختبرات الصناعية الكبيرة ليست الا مصادر قاصرة بالنسبة للمخترعات الكبـيرة وبالنسبة للمخترعات التى تتضمن تحسينا ، على أشياء سبق ان تم صنعها ·

(2) أنظر

Jewkes, Sewers et Stilerman, "Sources of Invention", Mc Millan, IIe nd éd. 1969.

(3) M. J. Pech, "Competition in American Aluminum Industry, 1945-1955", Harvard University Press, 1961.

(4) D. Hamberg, "Creativity and Innovation in Engineering", éd. S. A. Gregory Butterworths, 1972.

بيد أن فريمان (5) يرى ان معظم المخترعين فى حقل الصناعات البلاستيكية هم من العاملين فى الشركات الكبيرة · ويخالفه فى هذا الصدد مولر (6) الذى درس 18 منتوجا جديدا عرضت للبيع من طرف شركة : دوبونت فوجد ان خمسة منتوجات فقط اخترعها موظفون يعملون فى الشركة المذكورة لكنهم (أي الموظفين) قد شاركوا فى صنع اختراع واحد من الثمانية عشر منتوجا الذى درسه ·

على كل ، يوجد فى صناعة البلاستيك ، مساهمات قام بها مخترعون يعملون بصورة مستقلة نذكر منها زيكلر الذى صنع مادة Polyéthylène ، وناتا الذى اقترن اسمه بمادة Polyropylène ، ووين فيلد مادة Térylène ، وكيبينغ Silicones

واختم اجابتى على السؤال : من هم المخترعون ؟ بأن أروي اليكم القصة التالية حول أحد مواطنى الدانمرك المسمى ج· م· ل· ثورسون والذى اخترع طريقة لتشكيل صفيحة من الفولاذ لا يصدأ ، حسب الطلب (لاستعمالها مثلا كمغسل فى المطبخ وما شابه ذلك) · لقد نجح ثورسون فى انجاز هذا الاختراع فى الوقت الذى كانت الجامعات التكنولوجية فى العالم المصنع تبث فى عقول طلابها ان هذه العملية مستحيلة نظريا وعمليا · أجل ، لقد جح ثورسون على الرغم من عقيدة العاملين فى الجامعات التكنولوجية ، فاصبح بذلك مليونيرا نتيجة لاختراعه · وعندما سئل ذات مرة كيف امكنه صنع ما بدا مستحيلا ؟ قال : ما كنت اعتقد انه مستحيل ، ولهذا نجحت فى صنعه.

لم يتلق ثورسون الا تعليما فى المدرسة الابتدائية فى قريته ولمدة ست سنوات ، كان يغيب اثناءها يوما ويحضر يوما · وعندما شب ، خدم حمالا فى فندق لكنه كان صاحب افكار مبادرة ، فبعد سنوات فتح ورشة ميكنيكية صغيرة حقق فيها ما حققه من اختراع وابتكار ·

هل لكل ما قلت أهمية بالنسبة للبلدان النامية ؟

أعود فاكرر انى أرى بوادر أمل مشجعة فى البلدان النامية تتأتى من فكرة ان عددا كبيرا من المخترعات الحديثة ذات الاهمية ، والتى تمت فى البلدان الصناعية قد انجزه مخترعون يعملون بصورة مستقلة أو من جانب مخترعين يعملون فى مختبرات صغيرة وغالبا باستعمال موارد مالية محدودة جدا · وانى اضيف قائلا

(5) G. Freeman, "The Plastics Industry", National Institute Economic Review, Nov. 1963.
(6) W. F. Mueller, "The Rate and Direction of Inventive Activity", Princeton University Press, 1962.

ان الشركات الكبيرة كثيرا ما تتبنى المخترعات الصغيرة بعد نجاحها وذلك لان أوضاع هذه الشركات المالية تسمح لها بتحمل تكاليف تطوير المخترعات •

انى متاكد ، على اية حال ، انه يوجد آلاف الناس فى البلدان النامية الذين باستطاعتهم القيام باختراعات وابتكارات هامة اذا أمنا لهم الجو المناسب ـ وسوف يكون من الممكن انجاز الكثير من هذه الاختراعات فعلا لان المخترع لا يعرف ان اختراعه مستحيل •

البيئة المشجعة ـ ما هي عناصر البيئة التى تشجع على حدوث الاختراع والابتكار ؟ سأحاول فى الوقت المتبقى لى ان اصف بعض المظاهر الهامة لهذه البيئة •

ان الجو الاجتماعى ـ النفسى هو أهم مظهر لها • انى أقصد بهذا وجهة نظر المجتمع العامة نحو المخترعات والمبتكرات فاذا كان المجتمع يعتبر كل شيء جديد من عمل الشيطان ، فاقل ما يقال اذن هو أنه يصبح من الصعوبة بمكان بل ومن الميئوس منه ، ان يكون لدينا مخترعون ومبتكرون •

اما العامل الثانى فهو ان نعترف ونحترم المخترعين ونكافئهم • فمن الضرورى الاعتراف بالمكانة الهامة للمخترعين واعطائهم المكافآت المالية لان لهذه تاثيرا تشجيعيا لاقتناعنا بجدواه ، وليس بسبب ميثاق الامم المتحدة حول الحقوق الثقافية والاجتماعية
لاقتناعنا بحدواه ، وليس بسبب ميثاق الامم المتحدة حول الحقوق الثقافية والاجتماعية
والاقتصادية الذى أصبح نافذ المفعول فى 3 جانفى 1976 ، ينص على ذلك •

لقد اكدت على أهمية الوسط الشخصى الصغير لكن هذا غير كاف فى حد ذاته • يجب أن نؤمن للمخترع امكانية الاتصال مع العالم المحيط به ، لا أقصد زملاءه العاملين فى نفس الحقل ، بل اعنى الاطلاع على فروع العلوم المختلفة والتكنولوجيا والاسواق والمعارض وحضور المؤتمرات التى تقام فى بلده وفى البلدان الاجنبية • هذا وان الاتصال بالانسان العادى ، سواء كان عاملا فى مصنع ، فلاحا أو صيادا ، له قيمة كبيرة أيضا •

ان الاطلاع على المعلومات التكنولوجية ذات العلاقة بموضوع الاختراع له أهميته أيضا • انى لا أقصد الكتب التى تعالج موضوع تسجيل الاختراع وبراءته وما شابه ذلك والتى غالبا ما تكون مكتوبة بلغة يصعب فهمها من جانب الكثيرين من المخترعين • انى أقصد تلك المعلومات الخاصة والتى تتضمن لمحات جامعة عن المنتوجات والطرائق

التى يمكن الاستفادة منها فى البلدان النامية مـن الضرورى أن تكتب هذه المعلومات بلغة مبسطة يسهل فهمها من طرف الانسان العادى ، ويجب ان تتضمن أيضا التكاليف التى تصرف على المخترعات المختلفة وكمية العمـل الذى تتطلبه • ان مثـل هذه المعلومات المرجعية ذات فائدة كبيرة بالنسبة للمخترع المبتدىء اما بالنسبة للمخترع المتهن الذى يقوم بالاختراعات حسب الطلب ، فمثل هذه المعلومات ضرورة كبـرى ، لابـد منهـا •

مظاهر نظام تسجيل الاختراع والبراءة : لابد أن نكيف نظام البراءة والتسجيل حسب حاجات كل من البلدان النامية • وفى هذا الصدد أشير الى ما أطلق عليه اسم « سنة البركة » Grace Year أو « سنة التشجيع » والتى أصبحت أسلوبا شائعا فى الولايات المتحدة وعدد آخر من البلدان • ان فكرة « سنة التشجيع » مفيدة جـدا ان لم نقل جوهرية بالنسبة للمخترع المبتدىء فى بلد نامى ، على شرط ان ندخل التغييرات اللازمة على نظام البراءة والتسجيل فما هي سنة التشجيع يا ترى ؟

انها فترة زمنية تمتد على مدى عام كامل يستطيع اثناءها صاحب الاختراع ان يصنع اختراعه . وأن يستفيد منه ، ويبيعه ويعلن عنه ، وذلك كله قبل أن يقدم طلبـا من أجل تسجيله فى مكتب البراءات • ففى حالة ما اذا كان الاختراع جديدا كـل الجدة وتم صنعه استجابة لحاجة زبون معين أمر به ، أو نتيجة لتشجيعه ، أو استجابة لحاجة المجتمع ككل (وهذا غالبا ما يكون الامر عليه فى البلدان النامية) ، فمـن غير المنطقى وليس علميا البتة ، ان نطلب من المخترع أن يسجل اختراعه فى مكتـب البراءات وذلك قبل أن يعرضه على المهتمين به أو على أفراد المجتمع الآخرين ويستمع الى آرائهم حـول الموضوع •

ليس لسنة التشجيع فى الوقت الحاضر وجود الا بشكل بسيط فى مؤتمر باريس الدورى الذى ينعقد بمناسبة المعارض الدولية • ولهذا فان طلب التسجيل (فى الوقت الحاضر) الذى يقدم ، بناء على « سنة التشجيع » لا يتضمن امكانية تسجيل الاختراع فى بلدان أخرى • لكن ، ربما يكون من المفيد أن نعيد النظر فى « القانون المثـالى » المطبق الآن ، على الرغم من ان أي اقتراح لتغيير هذا القـانون لا يبعث السرور فى نفوس الكثيرين والذين نشأوا فى ظل التقاليد المستقاة من تشريعات تسجيل بـراءة الاختـراع الاوروبيـة •

لقد ثبت ان لـ « سنة التشجيع » مفعولا تحفيزيا كبيرا بالنسبة للعاملين فى حقل الاختراع فى الولايات المتحدة · ولذلك فمن المحتمل ان يكون لها نفس الاثر الطيب على جهود المخترعين فى البلدان النامية · وان عددا لا بأس به من المخترعين الاوروبيين الذين اعرفهم ، يتوقون الى أن تصبح « سنة التشجيع » مقبولة عالميا بعد بعض الوقت·

انتقل الآن الى فكرة أخرى تستحق مزيدا من العناية وتتعلق ببعض الاختراعات ذات الفائدة العملية · فى رأيى ثمة حاجة لشكل من أشكال شهادات الاختراع والتى تتضمن مبدأ « رخصة حقوق » (الاختراع) والتى تتفق مع أوضاع السوق فى البلدان ذات الاقتصاد الحر ، ومع أوضاع السوق فى البلدان ذات الاقتصاد الذى تسيره الدولة ، أيضا ·

للاسف ففى هذا المقام لن أستطيع أن اعطى مزيدا من التفاصيل حول الدور الذى يلعبه نظام تسجيل الاختراع · كل ما آمله هو ان يعالج هذا الموضوع بصورة مجددة ومبتكرة من الآن فصاعدا ·

انتقل الآن الى مجموعة من العوامل المشجعة · هذه العوامل هي عدد من الوسائل التى تساعد على تطوير اختراعات مفيدة وحيوية ، أذكر منها :

1 ـ تقويم الاختراعات الجديدة فى ضوء فائدتها للبيئة وقيمتها الاقتصادية والبيئية.

2 ـ تقديم المساعدات المالية والفنية للمخترعين حتى يستطيعوا صنع نماذج لمخترعاتهم وكي يتمكنوا من تقديم طلب لتسجيل الاختراع ومتابعته وتنفيذ التجارب وصنع النماذج الاولية والورشات النموذجية اللازمة ·

3 ـ المساعدة فى اطار تامين المشترين الاولين للمنتجات والطرائق المخترعة و/أ وتامين الرخصة اللازمة ·

من اللازب أن يقوم بالاشراف على ادارة وتنفيذ هذه الوسائل المساعدة مكتب مخصص لهذا الغرض ، اواية مؤسسة مشابهة وذلك على غرار ما يجرى فى البلدان السكاندينافية وبعض البلدان الاوروبية · ولقد حاز هذا الاسلوب من الاشراف على نجاح لا بأس به ·

هذا وان رابطات المخترعين وجمعياتهم التى تهدف الى ترويج المخترعات قد اثبتت انها عوامل جد هامة فى مجال تشجيع الاختراع والابتكار وتنفيذهما · كما ان الاتحاد الدولى لرابطات المخترعين (IFIA) قد كرس الكثير من جهوده من أجل تحقيق هذه الاهداف على المستوى الدولى ·

نشر المعرفة عن طرائق الاختراع والابتكار ـ بودى أن اتناول الآن مشكلة نشر المعرفة عن الاختراع والابتكار وبكل برود أقول انه يبدو انه يوجد فى البلدان النامية جهد مطبق بطرائق الاختراع والابتكار ٠ انى اعترف ان هذه كلمات قاسية ، لكن يؤسفنى ان أقول ان الوضع فى للبلدان الصناعية ليس بأفضل ٠

فلنتمعن فى هذه العبارة المقتطفة من تقرير خاص حضرته لجنة الخبراء القت لتقديم النصح لوزير التجارة فى الولايات المتحدة حول أوضاع الاختراع والابتكار فى تلك البلاد ٠ وورد فى التقرير الذى صدر منذ أقل من عشر سنوات ما يلى : « ينتشر جهل كبير (فى الولايات المتحدة) بطرائق الاختراع والابتكار فى حقل روح المبادرة لارتياد المجهول » ٠ اما الوضع اليوم فهو غير ما ورد فى هذا التقرير ٠

فى الوقت الحاضر توجد الكثير من المعرفة العملية والتى يمكن الحصول عليها بدون مقابل ، حول هذا الجانب الاساسى من السلوك الانسانى ٠ انى أعتقد شخصيا وبناء على تجارب قمت بها مع زملائى على أطفال وكبار على أن القدرة على الاختراع والأبتكار تبقى فى حالة حذر عند نسبة معتبرة من الناس ٠

ان الاغلبية العظمى من الناس فى البلدان النامية وفى البلدان الصناعية لم تدرب على ممارسة الابداع ولم يجر تحفيزها بصورة كافية كي تضع المعرفة التى لديها موضع الممارسة العملية وبالتالى تنمى ملكاتها الخلاقة ٠

ان المشكلة تبدو مثل عملية تعلم العزف على المزمار من نوع Traverse ٠ فالمحاولات الاولى لاخراج نغمة واحدة بصورة صحيحة تبوء بالفشل ٠ لكن كل الناس يتعلمون فى خاتمة المطاف كيف يعزفون على هذا النوع من المزمار ، مع العلم أن عددا محدودا منهم يملك درجة عالية من الذكاء فى حقل الموسيقى وفى الحقول الاخرى من النشاط الانسانى ٠

ان الدول النامية بحاجة ماسة لايقاظ الملكات الاختراعية والابداعية « النائمة » عند أفراد شعوبها ، أي لدى الانسان العادى والمتفوق على السواء ٠ ويجب على الانظمة التربوية ووسائل التربية الاخرى أن تتكفل القيام بهذه المهمة ٠ وسوف تثبت التجارب ان الجهود المبذولة فى هذا المضمار هي أفضل استثمار من أجل تقدم البلاد ٠

فى الختام ارجو أن تسمحوا لى أن أقدم عددا من الاقتراحات :

(I) يجب أن تقوم المنظمة العالمية للملكية النكرية (Wipo) بتنفيذ برنامج عمل يهدف الى اعلام مخططى السياسة فى البلدان النامية بفحوى الخطوات العملية التى من واجب الحكومات أن تتخذها من أجل تشجيع وتحريك الاختراع والابتكار والتاكيد على الفوائد التى تعود عليها من هذا كله ٠

2 ـ يجب على حكومات البلدان النامية أن تقوم بصياغة الخطط المتعلقة بتشجيع وتحفيز على الاحمراعات والابتكارات فى اطار برامج التنمية التى تنفذها ٠

3 ـ يجب ادخال طرائق الاختراع والابتكار الى صلـــب المنـــاهج المقررة فى الجامعات والمدارس الثانوية والمؤسسات التربوية العالية الاخرى ٠

4 ـ يجب تاسيس مكاتب ومنظمات من أجل ترويج الاختراع والابتكار الفنيــين فى البلدان النامية وعلى حكومات هذه البلدان أن تدعمها وتسمح لها بالعمل خـــارج اطار الروتين وتسلسل السلم الادارى ٠

5 ـ لابد من تشكيل جمعيات خاصـــة بقصد تـــرويج الاختراع والابداع يكون اعضاؤها من بين المخترعين والعاملين فى الصناعة ومن لهم اهتمامات بهذا الموضوع ٠

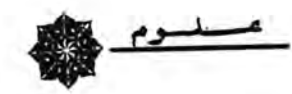
6 ـ يجب وضع الخطط اللازمة من أجل الاعتراف بوجود واحترام من يقـــــدم اختراعات أو مبتكرات أصيلة ويجب تقديم المكافآت المالية وغير ذلك لهم ٠

7 ـ كذلك يجب تخصيص الوسائل المالية المناسبة فى كل بلد نـــامى بهدف تمويل والمساعدة على تمويل مشاريع تطوير الاختراعات التى قد تتمخض عنها فوائد ما ٠

8 ـ ويجب أن تخفف الضرائب المفروضة عـــلى المخترعين وعلى أولئـــك الـــذين يحاولون أن يستثمروا ما يجد من ابتكارات محلية ٠

9 ـ واخيرا يجب اعادة النظر فى المعايير الفنية والمتطلبات الرسمية الاخـــري وأيضا فى القوانين السائدة حول موضوع الاختراع وذلك بهدف ازالة كل العقبـــات فى طريق أدخال الابتكارات التكنولوجية المناسبة ٠

من الممكن أن يطول بى المقام اذا ما أردت أن أورد كل المقترحات التى فى جعبتى ، على انى آمـــل ان ما ذكـــرته حتى الآن سيشجع (أو يستفز ، اذا سمحت لنفسى ان استعمل هذه الكلمة بشكل ودى) البعض منكم كي يطرح مسائل الاختراع والابتكار فى المستقبل بشكل اكثر ابداعا وابتكارا ، والسلام ٠



مــا وصــــل اليــــه العلــــم في ميــــدان الاشعــــة الشمسيــــة (*)

د. عبد القادر حليمي
أستاذ الجغرافية بكليــة الآداب
جــامعة الجــزائر

بســم اللــه الرحمن الرحيم ،

يسعدني في هذه الليلة أن اتحدث اليكم عن « اهمية الاشعة الشمسية في العــلم الحديث » وهذا الموضوع في الواقع ، جديد جدا ، اذ منذ حوالي عشرين سنــة فقط ، اتجهت عدة أبحاث نحو دراسة الاشعة الشمسية ، وتحليلها ، وضبط دورها في الحياة على سطح الارض، واخترعت عــدة أجهــزة لقيــاس الموازنة الشمسية ، وتحلــيل الطيف ، الى ان أصبحت دراســة الاشعــة الشمسية من أهم الابحاث ، في الاتجاهات العلمية الحديثة ، يستعملها «الهيدروغرافي» لقياس المياه،لقياس ما تبقى من التساقط ، ويستعملها كذلك عالم النباتات لمعرفة مــا تمتصه النباتات من الاشعة الشمسية ، ويستعملها الاقتصادي أيضا في معرفة مــا تنتجه هذه النبتة من المادة الجافة الى آخــره .

(*) محاضرة القاها في المركز الثقافي الاســلامي بالعاصمة بتاريخ 8 ذى القعدة 1393 هـ الموافق لــ 2 يناير 1974 م .

ولئن كان العلم الحديث يرتكز على الابحاث القديمة ، والاختراعات العلمية ليست فى الواقع الا حلقات متواصلة لبني الانسان منذ النشأة الاولى · اذ أن الحضارة التى نعيشها الآن هي عبارة عن تجارب وابحاث متواصلة منذ النشأة الاولى الى يومنا هذا ، وليست هي من اختراع انسان واحد ولهذا ، يجدر بنا ان نتعرض – ولو قليلا – الى تطور علم الفلك ، فمصدر الاشعة الشمسية هي الشمس التى تجرى لمستقر لها كما فى قوله تعالى : « **والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم** » · وقد أهتم بها القدامى اهتماما محدودا حسب امكانياتهم الحضارية واتجاهاتهم الفكرية ، وعقائدهم الدينية ، فمنهم من عبد الشمس مثلا ، ومنهم من اتخذها دليلا للاتجاه ، ومنهم من اتخذها مصدرا للحياة ومنهم من اتخذها دليلا على التوقيتات بصفة عامة.والمهم هو ان الشمس والكواكب والنجوم ، قد اهتم بها الانسان منذ نشأته الاولى · وهذا نجده واضحا فى الحضارات القديمة ، ففى المعابد الفرعونية صور للشمس ، وكذلك الآثار الكلدانية ، نجد فيها آثارا للشمس ونجد شعراء العرب أيضا قد اهتموا بالفلك باعتبار الشمس تمثل جزءا منه وفى العصور الوسطى – خاصة فى عهد المأمون – زاد اهتمام العرب برصد حركات الشمس ، فنبغ علماء منهم : البيرونى ، والاسطرلابى ، وسند بن على ، والخوارزمى ، وثابت بن قرة وغيرهم من علماء العرب الذين كانوا بارعين فى هذا الميدان ، وكانت للعرب ، محاولات ونتائج قيمة فى رصد القمر ، وحركة الشمس ما زالت آثارها واضحة فى أسماء كثيرة للنجوم التى نجدها فى اللغة اللاتينية · كالراعى ، والحمل ، والذئب التى هي نجوم نجد اسماءها لا تزال كما هي بالفرنسية ·

وهذا ما يدل على أن العرب قد برعوا فى علم الفلك وساهموا فيه وانهم لم يتركوا الزمان يمر دون اضافة لبنة من لبنات الاختراعات لتشييد قصر الحضارة الحديثة ، ولا غرو ، أن هذه المشاركة الاسلامية العربية كانت بدافع ايمانهم . ذلك ان القرآن يحث كثيرا على هذا الميدان ، الميدان العلمى ، ميدان البحث ، وهناك آيات كثيرة تحث الانسان على التعمق فى التفكير والبحث فى الحقائق العلمية : « **ان فى خلق السماوات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأوولى الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والارض** »

آية · « **أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما** » فهذه الآية جاء العلم الحديث ليقول ما قالت به ·· « لا بلاص » مثلا يقول ان مجموعتنا الشمسية كانت تمثل فى القديم كتلة غازية تدور حـول نفسها ، ثم وقـع لها انفجار فاندثرت وانقسمت الى شظايا ظلت هذه الشظايا تدور حـول نفسها ، وبحكـم دورانها تكون شكلها الكروى ، ثم تجمدت شيئا فشيئا وبعد ذلك ظهرت الحياة · فهذا واضـح فى قوله تعـالى : « **كانتا رتقـا ففتقناهما** » ونجـد عملية النحت ـ التى اتجهت نحوها الابحاث فى الوقت الحالى ، خاصة فى عـلم الجغرافيا ، نجدها واضحة فى القـرآن أيضا كقوله تعالى : « **وترى الجبال ، تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب** » آية · وفى قوله تعالى : « **رفع السماوات بغير عمد ، ترونها ، وجعل فيها رواسى** » نلاحظ معنى الجاذبية التى قيل عنها الكثير ، والتى يعتمد عليها علم الحركة فى الوقـت الحالى ، والتى وضحها جيدا « نيوتن » ففى هذه الآية ، معنى الجاذبية التى تـربط بين أجزاء المادة والتى تعتمد عليها العلوم الحديثة كعلم الحركة والكهرباء ، ودراسة الطاقة بصفة عامة ، فوزن الجسم مثلا ، ما هو فى الواقع الا قوة التصارع التى هي الجاذبية الارضية · والشحنات الكهربائية أيضا ما هي الا جزئيات دقيقة ، مرتبطـة ببعضها بقوة الجاذبية ولولا هذه الجاذبية التى هي أصل النشأة ، أو قاعدة الخلق لما كان الوجـود عـلى ما هـو عليـه . وقـد بين المولى تبارك وتعالى أهمية هذه الجاذبية فى تصويره ليوم القيامة ، وهو اليوم الذى يتحقق فيه هذا الخلل بين الكواكب وبـين الشمس فى قوله : « **اذا السماء انفطرت** »

وفى أواخر العصور الوسطى ـ وبفضل مـا وصـل اليه العـرب بصفة خاصة ، والانسانية بصفة عامة ـ بدأ الغربيون ينفضون غبار التخلف ويأخذون بآهداب العلم والبحث ، ويحاولون استعمال الفكر ، واستخدام العقل ، متحدين فى بعض الاحيان المعتقدات الكنائسية ، وضاربين أحيانا أخرى التقاليد الاجتماعية البالية ـ واشتهر الفلكى البولندى « كوبرنيق » بعـلم الفلك وتابعه « كبلـر » الالمـانى أيضا واخترع « غاليلى الايطالى » المنظار المقرب الذى أصبح بفضله التطلع الى السماء متعة عجيبة ملأت الدنيا علما جديدا لم يعرفه الناس من قبل ، فقد وجه منظاره الى القمر ورأى فيه جبالا وسهولا ، وبحارا . وذلك فى مطلع القرن السابع عشر .

وكذلك وجهه الى « زحل » ورأى ما حوله من توابع · وكذلك « المشترى » بـــل اكتشف نجوما كثيرة ما كانت معروفة من قبل · وذلك بفضل هذا المنظار العجيب · وكذلك استطاع ان يخترع بعض المعادلات للحركات التموجية · أما « نيوتن » الرياضى الانجليزى الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، فقد اكتشف قانون الجاذبية وقــواعد أصول الحركة المعمول بها الى يومنا هذا ، والتى يمكن تلخيصها الى ثلاثة قوانين هي :

1 ـ كل جسم متحرك ، حركة خطية منتظمة وثابتة ، سيبقى على حالته ما لــم تتدخل قــوة خارجية أخرى ·

2 ـ اذا وضع جسم تحت فعالية قوة خارجية ، سيتسارع فى اتجاه هذه القــوة بنسبــة عكسيــة لهـــا ·

3 ـ لكــل قوة ، قوة مضادة مساوية ، ومعاكسة لها ·

وفى مطلع القرن الحالى ظهر نابغة آخر هو « البرت اينشتاين » الذى أدخل تغييرا خارقا على ما وصل اليه العلم منذ الاجيال العتيقة ، حيث خــرج بالنظرية النسبية ، التى هزت الابحاث العتيقة واضافت أشياء كثيرة منها البعد الرابع أي البعد الزمنى اذ أن الابعاد المعروفة قبله كانت ثلاثة فقط هي الطول والعرض والارتفاع · وكذلك ادخل أبحاثا جديدة ، فقد كانوا من قبل يقولون باللانهاية فجاء هو وقال بأن للانهاية نهاية ، ولكن هذه النهاية مجهولة · وقال بأن الذرة ما هي الا صورة مصغرة للكــون العجيب ، تمثله احسن تمثيل · فالسيارات فى دورانها حول الشمس · والنجوم فى مجراتها ، يجمعها نسق واحد ، وتماثل حركى واحد · والكل يمثل وحدة الوجود · وفى السنوات الاخــيرة · اتجهت الابحاث الى دراســة الطــاقة والطــاقة الشمسية بالخصوص ، واخترعت لذلك الصواريخ ، والاقمار الصناعية المجهزة بالآلات لرصــد الاشعة الشمسية بصفة عامة والكونية بصفة خاصة ·

بعد هذه اللمحة السريعة · ندخل فى موضوع الاشعة الشمسية ، الذى يدخــل ـ حسب التخصصات الحديثة ـ فى ميدان الطاقة ، التى ما زالت غامضة فما هى الطاقة مثـــلا ؟

اننا نعرف الطاقة عن طريق آثارها فقط ، والاشعاع الشمسى ما هو فى الواقع الا طاقة لكن العلم الحديث يفرق بين الطاقات حسب مصادرها ، فهناك الطاقة الشمسية والطاقة الحرارية والطاقة النووية ، والطاقة الكهربائية الخ ··· والشمس عبــارة

عن نجم ملتهب ضخم حجمه أكبر من حجم الارض بمليون مرة ويبعد عن الارض بحوالى 150 مليون كيلو مترا · وهي أعظم مصدر للطاقة بعد الطاقة النووية طبعا · سطحها الخارجى عبارة عن غازات كثيفة متضاغطة ضغطا شديدا ، يزيد عن الاربعين مليون كيلوغرام · هذه الغازات يبلغ عددها حوالى 67 عنصرا ، والمعروف على سطح الارض حوالى 107 عنصرا ·

نعم ، هناك بعض الغازات لا تزال مجهولة الى يومنا هذا ، ولا تزال الابحاث جارية لمعرفة ماهية الشمس ، الا ان أهم الغازات التى تتكون منها الشمس هي الهيدروجين والهيليوم ، والهيليوم يمثل نسبة مرتفعة جدا . وكل هذه الغازات فى حالة انصهار وجيشان لا تستطيع الانطلاق من الشمس نتيجة للضغط الذى تتلقاه · ودرجة حرارة الشمس حوالى ستة آلاف درجة « كلبر » اما درجة حرارة باطنها فهي أزيد من ذلك بكثير ، وتصل الينا الاشعة الشمسية فى ظرف زمنى يقرب فى معدله من 8 دقائق أثناء النهار مباشرة · أما اثناء الليل فالاشعة الضوئية تصل الينا بواسطة القمر وكواكب أخرى · لانه يجب علينا ان نفرق ـ فيما يخص الاشعة الشمسية ـ بين أشعة ضوئية وأشعة حرارية وأشعة كيمياوية ، حقيقة ، عين الانسان لا ترى الا الاشعة الضوئية والاشعة الشمسية التى تصل الينا ثلاثة أنواع (1) أشعة ضوئية (2) أشعة كيمياوية (3) أشعة حرارية ·

والاشعة الشمسية تصل الينا فى شكل موجات ، تنتقل فى الهواء بسرعة ثابتة ، تقدر بحوالى ألف كيلو متر فى الثانية · ونعرف ان الضوء تختلف سرعته من مادة الى أخرى ـ فسرعته مثلا فى الماء أقل منها فى الهواء · والضوء رغم تكونه من عدة موجات ، الا ان هذه الموجات لها نفس السرعة بشرط ان تكون فى مادة واحدة · وموجات الاشعة الشمسية تختلف عن موجات الاشعة الكهربائية فى أطوالها اذ انها من نوع الموجات الدقيقة التى ينحصر جلها فى الاشعة المرئية · والاشعة المرئية هي التى يتراوح طولها بين 0،3 ميكرو و0،7 ميكرو o والميكرو هو عبارة عن جزء من ألف جزء للميلمتر · والاشعة عبارة عن جزئيات دقيقة تسمى « الفوتا » وكذلك « الكونتا » هذه الجزئيات الدقيقة تعمل ضوءا · وتسير كما نعلم بسرعة 300 ألف كيلو متر فى الثانية · وتختلف موجات الاشعة الشمسية عن غيرها من الموجات حيث انها تتكون من سبعة الوان مندمجة تعرف بلون الطيف ويمثلها قوس قزح ـ وكذلك زجاج كريستال عندما تعكس عليه الاشعة الشمسية فانه يتحلل الى سبعة ألوان · وهذه الالوان كل

منها يمثل موجة . وهذه الالوان السبعة هي : البنفسجى ـ الازرق ـ النيلى ـ الاخضر ـ الاصفر ـ البرتقالى ـ الاحمر . كل لون منها يمثل موجة يختلف طولها عن طول الموجة الاخرى ، فأقصر طول هو طول الموجة البنفسجية الذى يتراوح ما بين 0،3 و0،4 من الميكرو . وأكبر كمية من الطاقة الاشعاعية الشمسية التى تصلنا هي التى تحملها الينا الاشعة الخضراء والصفراء ، والتى تدور أطوالها حول 0،5 من الميكرو . وقد يتساءل بعضكم لماذا يكون الشفق أحمر ؟ هذا بسيط للغاية .

قلنا ان الاشعة الشمسية تتكون من سبعة الوان ، الاشعة البنفسجية قصيرة جدا ، والاشعة الحمراء طويلة ، الاشعة القصيرة تنعكس بسرعة والاشعة الطويلة لا تنعكس بسرعة . وعندما تطلع الشمس صباحا يبدو الافق أحمر لان المسافة التى يقطعها شعاع الشمس لكي يصل الى هناك ، بعيدة جدا . وعندئذ يمتص الغلاف الغازى كل الاشعة الدقيقة ويترك فقط الاشعة الطويلة التى يمثلها اللون الاحمر . وكذلك الحال فى تعليل ظاهرة احمرار الشفق عند الغروب .

لماذا نرى بعض الاجسام سوداء تماما ؟ لانها تمتص كل الاشعة . ولماذا نرى بعض الاجسام بيضاء ؟ لانها تعكس كل الاشعة ونحن نعلم ان اللون الابيض متكون من سبعة الوان . لماذا نرى قماشا أخضر مثلا ؟ لانه يمتص كل الالوان ما عدا اللون الاخضر الذى يعكسه الخ ...

المهم ان هناك اشعة مرئية وأخرى غير مرئية وهذه الاخيرة هي التى تحتوى على أطوال موجية قصيرة من الاشعة البنفسجية تعرف بالاشعة فوق البنفسجية وتأثيرها الكيمياوى أكثر من تأثيراتها الحرارية . كما ان هناك أشعة فوق الحمراء وموجاتها تزيد أطوال موجاتها عن أطوال موجات الاشعة الحمراء . وهي كذلك غير مرئية وتعرف بالاشعة الحرارية لان تأثيراتها الحرارية أكثر من تأثيراتها الكيمياوية . وتستغل هذه الاشعة فى الاكتشافات الموجية بالخصوص . ونعرف ان هناك أسلحة حديثة تكشف العدو من غير ان يراه الانسان .

وذلك ان الانسان فيه حرارة تفوق درجتها 36 درجة مثلا .

وهذه الحرارة تخرج من الانسان فى شكل أشعة ، فى شكل جزئيات دقيقة ، وتنتقل لمسافات بعيدة ، والآلة بمجرد ان تصلها هذه الحرارة تشير الى أن الناحية الفلانية تأتى منها الاشعة . ولهذا ، هناك بعض الاسلحة حاليا تكتشف العدو فى الليل الدامس . وخلاصة الحديث أن الاشعة الشمسية الواصلة الى سطح الارض ما هي الا كمية

ضئيلة من الطاقة الشمسية التى يتبعثر الجـزء منها فى الفضاء،فى الكون ، ثـم ان الجزء الواصل الى نهاية الغلاف الغازى ينعكس جزء منه مرة أخرى ، الى الفضـــاء وجزء آخر يعبر الغلاف الغازى المحيط بالكرة الارضية لكن قبل ان يصل الى سطـح الارض يعكس منه الغلاف الغازى نسبة أخرى • وهكذا ، فلا تصلنا من الطاقة الشمسية الا كمية ضئيلة للغاية قدرها الباحثون بحوالى الواحد من المليار جـــزء من الطاقة الشمسية المنبعثة من الشمس •

ولا يزال الانسان يحاول اكتشاف أسرار الاشعة ، ويحاول استغلالها فى التطور الاقتصادى ، ولئن استطاع ان يستغل فى تقدمه التقنى بعض الاشعة المرئية ، والقليل من الاشعة الحمراء الى حد ما • الا ان هناك اشعة أخرى كونية وبالخصوص تلـك الاشعة ذات الموجات الدقيقة ، ما زالت فى سر عجائب الكون التى لا يحصيها الا الله ، وهي أعظم الادلة على قدرة الخـــالق ، وسوف يكون لموضوع الاشعة الشمسية فى المستقبل أهمية كبرى فى ميدان الطاقة ، خاصة وان الطاقة البترولية سائرة نحـــو النضوب • وستعوضها الطاقة الشمسية • ولهذا فان الابحاث الحديثة فى البلـدان المتقدمة ـ خاصة فى الولايات المتحدة ـ متجهة نحو دراسة الطاقة الشمسية •

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

جـــامــــــع قـرطبــــــة (*)

والآن وقد حــرك الانتعــاش روح الاســلام ،
بلمســة الهيــة غريبــة ، لا يمــكن ان يصفها لســان ،
ارقبــوا اية ميــاه جديدة ستنفجر من ارض المحــيط ،
وأية الوان جديدة ستغــير سمــاء الاســلام الزرقــاء .

للشاعر محمد اقبــال
1877 – 1938

تــرجمــة

د· سلمى الخضراء الجيوسى
استاذة فى جامعة قسنطينة

محمد اقبال هو شاعر الباكستان الاول وفى طليعــة شعراء الاسلام ، جمع الى الورع ، رقى الروح ، وتهذيب العقل ، والثقافة الحديثة الشاملة ·

وفى قصيدته الخالدة « جــامع قرطبة » التى نظمها فى زيارته الى اسبانيا يتحدث اقبال عن فلسفة العشق الالهى الذى تنبع منه جميع روائع الخلق والابداع ·

(*) القت هذا القصيد فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى بمدينة بجاية .

سلسلة الايام والليالى ، يا ناقشة جميع الحوادث
يا نبع الحياة والموت
أيها الخيط الحريرى الناعم ذو اللونين
من غزل الله ومن نسج ذاته الالهية المقدسة
يا تنهد موسيقى الازل ، ينبعث من عمقها وعلوها
صوت الله وتلون القدر
ان يوم الحساب ينتظرك وينتظرنى ليحكم عليك ويحكم علي
وأن الايام والليالى فى موكب حول هذا العالم
وانت وانا سنجد فى الموت جزاءنا وفى الفناء أجرنا
وعندئذ ، لا معنى لظلمتك ونورك الا هذا :
مجرى طويل لا نهائى من الزمن خال من الفجر والغروب .

☆ ☆ ☆

ان كل ما فى العالم هو من رمل ، كله من رمل
الفناء هو البداية والنهاية ، والفناء نصيب المختبىء والظاهر
والقديم والجديد ، كل شىء نهايته الفناء

☆ ☆ ☆

ومع هذا فان فى هيكل هذه الاشياء سرا لا يفنى
صنعه رجل من طينة الله وجمله وكمله
رجل عظيم ، يبرق عمله باشراق العشق
العشق الذى هو منبع بئر الحياة ، العشق الذى حرم عليه الموت
ان العشق نفسه طوفان يبتلع كل الامواج المعاكسة
وكم من اجيال لا نعرف أسماءها ، تعيش فى ميقات هذا العشق
بعيدة عن ساعتنا هذه

☆ ☆ ☆

العشق هو روح جبريل ، هو قلب النبي
العشق هو رسول الله ، وهو كلمة الله
وفى نشوة هذا العشق يزيد بريق طينتنا الفانية
انه خمرة لم تختمر بعد ، وكاس للقلوب النبيلة
وحارس المحراب ، وأمير الجنود

انــه شمس جــوالة ، لا تعــد مساكنهــا ولا تحصــى
وهــو الانمــل الذى يقتطف الاغـانى من أوتــار الحيــاة
العشــق هو بريق الحيــاة ـ العشــق هو نــار الحيــاة

☆ ☆ ☆

وانــت يا محراب قرطبة تــدين بوجودك للعشــق
العشــق الذى لا يموت ، العشــق الغريب عن الزمن عن الامــس والغــد ،
فالالوان والآجــر ، والحجر والكلمات ، والموسيقى والغنــاء
لا يغــذيها ســوى دم القلــب الفائــر
نقطــة واحدة من دم القلــب ويولد للرخــام قلــب ينبض
ومــن دم القلــب يتدفــق الــدفء والموسيقى والســرور

☆ ☆ ☆

ان لك يا جامع قرطبة البناء الذى يخلب الروح ، ولى الشعر الذى يلهب القلب
انت تنــادى قلوب الرجال ليجتمعوا امــام اللــــه ، وانــا افتــح قلوبهم
ان صــدر الانسان قــوى وكبــير كقبــة السماوات ٠
ولو كان قبضة من غبــار محجوزة فى ذيــل السماء الزرقاء
كيف تــرى يرقــب اللــــه الذى هــو النــور تعبــدنا
لعلــه يشعــر باللذة والحرارة التى تبــرق فى أعطافنا الخاشعــة
انظرنى انــا ، الفقير الهندى ، أنــظر حماستى وحرارتى
وقــد مــلأ التسبيح للــــه ولرسول اللــــه روحــى وفمــى
ان صــوتى ينطلــق بحماســة واخــلاص
وقيثارتى تعــزف بشــــوق وحرارة
اللــــه عظيم ـ وعظمة اللــــه تنبض فى كل عرق من عروقى ، الفــانية

☆ ☆ ☆

أيها الجميل فى ظاهرك وفى باطنــك ، انك الشاهد بأن بانيــك
رجــل مثلــك جليــل ، وجميل الشكــل والــروح
ان أسســك متينــة واعمــدتك التى لا عــديد لهــا
تشمخ الى السماء كما تشمخ صفوف النخيل فوق رمــال الشــام

والنور ، النور الذى رآه يوما موسى ، يلتمع على هذه الجدران وعلى هذه القباب
وفوق هذه المنارة تجلى جبريل بعزة وكبرياء
ان المسلم الحقيقى لا يمكن أن يعرف الانكسار
لانه يسمع حل أحاجى موسى وابراهيم فى كل دعوة للصلاة
ان عالمه لا نهاية له ، وافقه لا حد له
ود جلة والدانوب والنيل ليست الا موجة من بحره
انه رأى أياما عجيبة ، وعرف اغرب الاقاصيص
انه ساق فى مملكة الفن ، وفارس فى ميدان العشق
خمره لا تشوبها شائبة ، وسيفه مجرب أصيل
انه محارب وسلاحه لا اله الا الله لمن درعه
وسلاحه لا اله الا الله تحت ظلال سيفه

☆ ☆ ☆

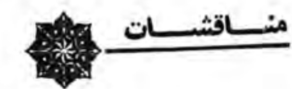
اننا نرى فى أحجارك كل أسرار المؤمن الحقيقى
نار أيامه الغائرة ، ونشوة لياليه الذائبة
رفعته وكرامته ، أفكاره وخياله العظيم
حماسته ، شوقه المحرق ، اذلاله لنفسه واعتزازه
وكما هي يد الله ، فان يد المؤمن أيضا قديرة فنانة ، قوية الخلق والحكم
لقد جبل المؤمن من التراب والنور عاشقا لروح الله وصفاته
قلبه الكبير ينبض فى غنى عن أهل الارض
ان هدفه لرفيع ـ فهو لا يعبأ بأحلام الارض ـ
رجل على خلق عظيم يكسب القلوب بنظرة من عينيه
هادىء عند الحديث ، عنيف فى ملاحقة الهدف
نقي الفعل والعقل ، نقي فى المعارك وفى الاعياد
ان محور الله يدور حول ايمان عبده الصميم
وكل ما عداه خيال وسراب وأوهام
المؤمن هدف الحكمة وعمرة الحب
يلهب الارواح فى ساحة هذا العالم ويشعل القلوب

☆ ☆ ☆

يـا محراب أرباب الفـن ، يـا جوهرة الدين المبـين
لقد جعلت تـراب الاندلس مقدسا كتـراب مكـة
آه ، هؤلاء العرب الفرسان ، ذوو الاخلاق العظيمة والحكمة الساطعة
لقد مدنـت نظراتهم الشـرق والغـرب
وفى ظـلام أوروبا كانت حكمتهـم هي نـور الطريق
وحتى اليـوم نـرى الاندلس غنيـة بدمائهـم
عطـوف القلـب مرحـة ، بسيطة الوجـه مشـرقة
وحتى اليوم نرى فى هذه الارض عيونا كعيون المهى ناعمة الجفون
ترمى لحاظها نحونا فتقـع سهامها فى قلوبنا راسخة لا تريم
وحتى اليوم يعلق بنسيمها بقية من عطر اليمـن
وحتى اليوم يعيش فى أغانيها صـدى من أنغـام الحجاز

☆ ☆ ☆

كالسمـاء الجديدة تمتـد أرضك تحت النجـوم
آه ، لقـد مرت أجيال ، واحسرتاه منذ سمعت ساحاتك الاذان لآخر مرة
أي واد بـل أي مـرتع جديد وصلت اليـه
قافلـة العشـق الباسلة فى طريقهـا العـاصف
لقـد رأت أوروبا عاصفـة الاصـلاح
تمحـو الطـرق القديمة اثـرا بعد عـين
وراقبت فـرنسا بعيون جاحظة نـار الثـورة تشتعـل
وتقلـب عالمـا باكملـه هو كل ما عـرفه الغـرب
وهاهم أبنـاء روما العظيمة التى شاخت وهـي تعبـد القـديم
انسـاقوا مع جاذبية التجديد فوجدوا شبابهم مـرة أخرى
والآن وقـد حـرك الانتعاش روح الاسـلام
بلمسـة الهيـة غريبة ، لا يمكن أن يصفهـا لسـان
أرقبـوا آيـة ميـاه جديدة ستنفجـر من أرض المحيط
وأيـة ألـوان جديدة ستغـير سماء الاسـلام الزرقـاء



حول مقال :

أبو القاسم الحفناوى وكتابه : « تعريف الخلف برجال السلف »

خرشى محمد بن أبى القاسم الديسى
أستاذ بمتوسطة الذكور القديمة
ـ بوسعادة ـ

أطلعت على مقال الاستاذة خديجة بقطاش المنشور فى العدد (51) ، ص (48 ـ 57) من مجلة « الاصالة » الغراء · ومع أننى أنوه بجهد الباحثة الفاضلة ، واشكر لها اهتمامها بأحد أعلام الوطن البارزين الشيخ أبى القاسم الحفناوى وبكتابه القيم (تعريف الخلف ، برجال السلف) · لا يسعنى الا أن أكتب هذا التعقيب الوجيز تصحيحا لهفوات تاريخية لا ينبغى اغفالها ، ومناقشة لاحكام وآراء لا يحسن السكوت عنها ·

ويتناول هذا التعليق النقاط التالية :

1) **تصحيح نسب الشيخ الحفناوى وتحقيق اسم والده** · ورد فى مقال الكاتبة ما نصه : « هو الحفناوى بن الشيخ بن أبى القاسم يرجع نسبه الى سلالة سيدى محمد بن عروس ، وسيدى المازرى ابن يطو » · وهذا خطأ ، والصواب أن نسبه ينتهى

الى سيدى ابراهيم الغول ، أما سيدى محمد بن مرزوق (وليس ابن عروس كما ذكرت الكاتبة) فهو أحد أجداده الاعلين · كما أن سيدى المازرى هو جده من قبل الام لان والدة المؤلف هي السيدة خديجة بنت المازرى بن محمد بن يطو (1) ·

ثم قالت الكاتبة بعد أسطر قليلة : « وأبـوه هـو الشيخ المعروف بمحمد بن أبى القاسم الهاملى ··· وقد ترجم له ابنه فى كتابه فقال : سيدى أبى القاسم بن سائب المنصور الشريف الحسنى ··· » وهنا التبست الامور على السيدة الباحثة ولـم تنتبه الى ما وقعت فيه من التناقض ، والابتعاد عن الحقيقة ، لان الشيخ محمد بن أبى القاسم (2) مؤسس زاوية الهامل هو شخص آخر لا يمت بصلة الى المؤلف وقد أخطأت الكاتبة فى نسبـه أيضـا · والصواب (محمد بن أبى القاسم ابن ربيـح بـن محمد ابن عبد الرحيم بن سائب بن المنصور ···) ·

أما والد الشيخ الحفناوى فهو (الشيخ بن أبى القاسم بن الصغـير بن محمد المبـارك بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن مرزوق بـن محمد بن سيدى ابـراهيم الغول (3) دفين مدينة بوسعادة ابن سيدى ابراهيم السلامى دفين العاصمة وقـد ترجم المؤلف والده فى كتابه (4) ·

2) أشارت الكاتبة فى معرض حديثها عن طريقة المؤلف فى الترجمة الى ابتعاده عن المنهج العلمى · ويقتضى الانصاف أن نتوقف قليلا عند هذه النقطة ، للاعتبارات التالية : ان التحقيق فى كتب التراجم مغاير تماما للتحقيق فى الحوادث التاريخية ، وهو فى الغالب لا يعدو تخطئة قول وتصويب آخر بناء على القرائن والشواهد ، أو تصحيح ما قد يعترى الاعلام ، والالقاب ، والانساب مـن التصحيف والتحريف ، أو محاولة التوفيق بين الروايات المختلفة للتحقيق فى واقعية بعض الاعمال والمواقف ، أو لضبط تاريخ الولادة أو الوفاة · وينتهى التحقيق فى معظم الاحوال الى تخمينات ظنية تعتمد على الاحتمال والترجيح وقلما يتوصل الباحث الى نتائج مؤكدة موثوق بها الا اذا توفرت لديه الادلة المادية وهي قليلة فى هذا المجال ·

---

1) تعريف الخلف ج 2 ــ ص : 538 ــ معجم أعلام الجزائر ــ ص 185 ــ بيروت 1971

2) نفس المصدر ص 336 ــ وانظر ايضا معجم أعلام الجزائر : ص 176 ·

3) تعريف الخلف : ج 2 ، ص 18

4) نفـس المصـدر ص 178 ·

وعليه فان الشيخ الحفناوى لم يسلك هذا السبيل لجهله بالمنهج العلمى بـــل نعتقد أنه آثر طريقة العرض المحايد ، واحترام النصوص الاصلية ، مع التقيد بالنزاهة التامة ، والامانة العلمية • وهي طريقة سليمة لا غبار عليها ، وقد أعتمدها الكثير من المحققين فى الشرق والغرب • أما طريقة الاقتباس الجزئى والتصرف فى كلام الغير وانتحاله ، فهي طريقة لا جدوى فيها ، وكثيرا ما شوهت الحقائق وظللت الباحثين • يضاف الى هذا كله تعذر الوسائل وصعوبة العمل ، وأعنى بتعـــذر الوسائل ندرة المصادر ، وقلة المراجع • فكثير من علمائنا الذين ترجم لهم المؤلف لا توجد تراجمهم الا فى الكتاب الواحد ، ومن النادر جدا أن تتنوع المراجع وتتعدد ، كما هو الحال فى تراجم علمـاء المشــرق •

أما صعوبة العمل فتتمثل فى اتساع الموضوع ، وكثرة التراجم ، اذ يشتمل الكتاب بجزأيه على (418) ترجمة ، ينتمى أصحابها الى عصور مختلفة وتحقيق هذا العـدد الضخم من التراجم بانتهاج الاساليب العلمية المتبعة فى كتابة التراجم والسير أمــر صعـــب المنـــال •

ونظرا لهذين العاملين اعتمد الشيخ الحفناوى على طريقة الجمع والعرض المحايد التى سبقت الاشارة اليها آنفا ، وأراد لكتابه أن يكون مرجعا هاما للتعريف برجـال الوطن ، وسجلا حافلا بالنصوص ، ومصدرا ثريا يغترف منه المؤرخون ، والباحثون ، والمحققـــون •

ومما ذكرته الكاتبة أيضا فى هذا الصدد أن المؤلف « ينقل أشياء غريبة مثــل بعض المعجزات ••• » والاصطلاح المناسب فى هذا المقام هو كلمة « الكرامات » لان المعجزة من خصوصيات الانبياء ـ وذكر المؤلف لهذه الحادثة دون تعليق لا يعنــى تصديقه بها ، أو عدم تصديقه •• الا أنــه لا يؤاخذ على ذلك نظــرا للنزعة الدينية المحافظة ، والاتجاه الصوفى السائدين فى ذلك العهد •

3) تعرضت الكاتبة لاسلوب المؤلف فى الترجمة فذكرت من مآخذه أنه يبالغ فى الوصف ويعمد ••• (كثيرا) الى السجع (الممل) ـ والواقع خلاف ذلك ، فان أسلوب الشيخ يعد من السهل الممتنع لما يمتاز به من الدقــة والوضوح والاصالة والبــراءة من العيوب الشائعة فى كتابات ذلك العهد •

وأبرز دليل على ذلك تراجمه لافراد أسرته • وأبناء قريته وطائفة من معاصريه • وتتجلى خصائص أسلوبه فى مقالاته الصحفية ، وكتبه المترجمة نذكر منها على سبيل

المثال « الخير المنتشر فى حفظ صحة البشر » فكتابته فى هذا المجال تعتبر نموذجا رفيعا للنثر العلمى الدقيق البليغ · أما ما يوجد فى « تعريف الخلف » من سجع فان المؤلف لا يتحمل وزره ، لان جله ـ باستثناء المقدمة ـ منقول من المصادر التى اعتمد عليها ، لا سيما « نحلة اللبيب » ونشر « ازاهر البستان » وبضع صفحات من كتاب « ديوان الصبابة » لابن ابى حجلة التلمسانى ، وأخرى من كتاب « حديقة الافراح » للشروانى ·· وغيرها ·

4) تضمن المقال أيضا دعوى عريضة ، فحواها أن الاتجاه السياسى تدخل فى اختيار المؤلف للشخصيات المترجم لها ، واهمال بعضها ، وضربت على ذلك مثلا باغفاله ترجمه الشيخ الحداد · والواقع أن هذا تحامل وتسرع فى الحكم ، ويجب البحث عن سبب آخر ، اكثر وجاهة وأقرب الى المعقول ·

ان الشيخ الحداد زعيم ثائر بحق · الا أن شهرته العلمية لا توازى شهرته الثورية وبعبارة أوضح ان مكانته الثورية تفوق بكثير مكانته العلمية ·· وهذا فى نظرى سبب وجيه يدعو الى عدم ذكره فى كتاب خاص بذوى الفكر وأرباب القلم ، كما ذكره المؤلف فى مقدمة كتابه ·

على أن اعتبار الشيخ الحداد من المثقفين قضية فيها نظر ، وكانت محل جدال وخلاف ، وقد اثار هذه القضية الدكتور يحيى بوعزيز على صفحات مجلة « الاصالة » حيث قال ما مؤداه : « فحول ثقافة الشيخ الحداد أو اميته هناك رأيان شائعان فى منطقته ، رأي يؤكد انه مثقف بدليل أنه خلف بعض التآليف ··· ورأي آخر يدعى انه أمي لا يقرأ ولا يكتب ·· » ثم يقول بعد ذلك ما نصه : « ورأينا الذى سيبقى قابلا للنقاش ، هو أن الشيخ الحداد لم يكن أميا تماما ، ولم يكن ذا مستوى عال من الثقافة ، بل كان ذا ثقافة متوسطة يعرف القراءة والكتابة (5) » · ولا ينقص هذا شيئا من قيمة ذلك الثائر العظيم ، فكتب التاريخ كفيلة بتخليد ذكره ·

وهذا يؤيد قولنا بأن الشيخ الحفناوى لم يكن متاثرا باتجاه سياسى معين ، ولو كان كذلك لاهمل ترجمة الثائر الكبير الامير عبد القادر (6) الذى أهلته مكانته العلمية كمفكر وشاعر أن يتبوا مكانه فى « تعريف الخلف ، وتتحلى به صفحاته » ·

---

5) مجلة « الاصالة » العدد 47/46 ، ص 114 ·

6) تعريف الخلف ، ج 2 ، ص 308 ·

وأخيرا يجد ربنا أن نذكر الباعث الحقيقى الذى دعا الشيخ الحفناوى الى تاليف كتابه ، ان هذا العمل الجليل الذى قام به يعد تعبيرا صريحا عـن الوجود الوطنى ، وابرازا للشخصية الجزائرية ـ التى حاول الاستعمار طمس معالمها ـ واحياء للتراث القومى « كي لا يقع فى أغوار التناسى » ـ على حد تعبير المؤلف نفسه ـ كل ذلك أملته غيرة قومية عارمة ، وروح وطنية صادقة ، وحب خالص للوطن ، ورجاله ، وايمـان راسـخ بمستقبلـه ٠

وفى الختام أجدد شكرى للاستاذة الفاضلة خديجة بقطاش ـ وآمل أن يكـون الانصاف رائدنا واكتشاف الحقيقة غايتنا ٠ والسلام ٠



« انــا للــه وانــا اليــه راجعــون »

على اثر وفاة الشيخ محمـد الشاذلي بلقاضي أحد علماء الزيتونة الافـذاذ ، وجه السيد مولود قاسم نايت بلقاسم الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشـؤون الدينية ، برقية تعزية الى كل من السيد محمد مزالي وزير التربية القومية التونسيـة ، والى عائلة الفقيـد هذا نصها :

تلقينا ببالغ الاسى والاسف نبأ وفاة المغفور له الشيـخ محمد الشاذلي بلقـاضي .

وبهذه المناسبة الالمية نتقدم اليكم بأخلص التعازي ، سائلين الله العلى القدير أن يعينكم على تحمل هذا المصاب الجلل ، ويتغمد الفقيد بواسع رحمته ، ويسكنـه فسيـح جنانـه .

رد السيـد محمـد مـزالى

اتصلت ببرقية التعـزية التى تفضلتـم بتوجيهها الى اثـر وفاة الشيـخ محمـد الشـاذلى بلقـاضى .

وانى اذ أتقدم اليكـم بأخلص عبارات الشكـر ، أسـأل الله أن يجازيكم عنـا خـيرا ، ويحفظكم بلطفـه .

محمـد مـزالى

هذا ، وسننشر فى العدد القادم نص الكلمات التى ألقيت فى الذكرى الاربعينيـة التى أقامهـا له المركز الثقافى الاسـلامى بالعاصمة .

ان خير الحديث كتاب الله

أحمد حماني
رئيس المجلس الاسلامي الاعلى

بدأنا فى عدد 39/40 من الاصالة بتاريخ ذىْ القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من آخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمى ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على أمواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من أستاذ جامعى يساعد زوجته فى المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التى تسمى الترانزيستور · «الأصالة»

الحمد لله الذى أخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، وجعل لهم السمع والابصار والافئدة لعلهم يشكرون ، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون على الله حجة بعد الرسول للمبطلين · نحمده أن شرح صدورنا للاسلام ، وجعلنا من أمة خير الانام ، وهدانا سبل السلام ، ونشهد أن لا اله الا اللـه الملك العلام ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الهادى الامام ، فصل اللهم عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع طريقه الى يوم الختام ·

أما بعد أيها المسلمون ـ فان لله على عباده مننا لا تحصى ، وأعظمها علينا معشر المسلمين ، أن بعث فينا رسوله الامين يتلو علينا آياته ، ويعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا ، ويدعونا لما يحيينا ، ويخرجنا باذن ربنا من ظلمات الجهل والظلم والضلال ،

(*) خطبة الجمعة ليوم 13 جمادى الاولى 1398 هـ ـ 21 ابريل 1978 م ·

الى نور العلم والعدل والهدى ، ولقد ترك رسوله خاتم الانبياء وامام المرسلين فينا ما ان اتبعناه فلن نضل ابدا كتاب الله وسنة رسول الله ·

ان أحسن الحديث كتاب الله ، وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقد يسره الله للذاكرين ، وجعله الكتاب المبين ، وأمرنا بتدبر آياته والاتعاظ بمواعظه التى تضمنها ، وان نطلب الشفاء – شفاء النفوس- بهديه ، (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) ، « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ·

ولقد تدبره أسلافنا ، ودرسوه وفهموه ، واستنبطوا منه المواعظ والاحكام وأقاموا الدين والدنيا بشريعة القرآن ، فصلح لهم دينهم واستقامت لهم دنياهم ، وعلى ضوئه بنوا أعظم الدول ، وأزهى الحضارات ، وحكموا الناس بالعدل والاحسان ، لان الله يقول فى القرآن : **(ان الله يأمر بالعدل والاحسان)** ، ويقول : **(ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)** ، فكانوا بالحق خير أمة أخرجت للناس ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا القرآن ، فلم يتدبروا آياته ، وأهملوا الاستنباط منه وطلبوا الهداية فى غيره ، وعطلوا أحكامه ، فخرجوا من النور الى الظلمات ، وقد أنزل القرآن ليخرجهم من الظلمات الى النور ·

أيها المسلمون – ان من الواجب علينا أن نعود الى القرآن لنتلو آياته وتدبرها ، ونتفهمها ونهتدى ان شاء الله بهديها ، فان أفضل الذكر ذكر الله بالقرآن ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قال : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذى ·

وان أفضل الدراسة دراسة القرآن ، فقد صح فى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » ، رواه مسلم ·

أيها المسلمون ، ان الصلاة عماد الدين ، وركنه المتين وهي الفارق بين الكفر والايمان ، فمن أقامها كان من المسلمين ، ومن تركها كان من الخاسرين ، وانما تصح الصلاة بقراءة القرآن ، وقد صح فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، وفاتحة الكتاب هي سورة (الحمد لله

رب العالمين) سميت فاتحة الكتاب لان بها تفتتح قراءة القرآن لفظا ، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا ، وتفتتح بها الصلوات ، ولها أسماء أخرى منها أم الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثانى والقرآن العظيم ، صح بهذا الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فى قوله لابى سعيد بن المعلى رضي الله عنه : « لا علمنك سورة هي أعظم السور فى القرآن » ، ثم قال : له عند التعليم (الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ». رواه البخارى . ولقد امتن الله بذلك على نبيه عليه الصلاة والسلام ، اذ قال له : « ولقد ءاتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ». فما أنزل الله فى التوراة ولا فى الانجيل ، ولا فى الفرقان مثلها كما صح فى الحديث ٠

وكفاها عظمة أنها شرط فى صحة كل صلاة ، لو تركت من الفذ أو الامام فى ركعة منها بطلت الصلاة كلها ، فحق على كل مسلم أن يقرأها ويتدبرها ، ويفهم معنى كل لفظ وكل جملة فيها ليتضاعف الاجر بها ٠ وقد ذم الله سبحانه من تحمل كتابه فلم يحمله اذ قال : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ونحن نذكر لكم شيئا من تفسيرها ٠

فمعنى (الحمد لله) الشكر بجميع أنواعه لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه، ومن دون من برأ من خلقه، بما أنعم على عباده، من النعم التى لا يحصيها ولا يحيط بها غيره أحد ، فالحمد الحقيقى المستحق استحقاقا انما يكون لله ، لانه المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن جميع صفات النقصان ، ولانه خالق كل شيء . والمنعم عليهم بالنعم الكثيرة ٠

نسأل الله العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم ، ذا الفضل العظيم ، أن ينزل علينا سكينته ، وأن تغشانا رحمته ، وأن يرضى عنا فاننا راضون عنه ٠ ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ٠ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمين ، ونشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين ، ونشهد أن محمدا رسول الله الامين ٠

أما بعد أيها الناس فان المسلم اذ يحمد الله بهذه الصيغة · (الحمد لله) يعلن أنه يوحد الله بحصر الحمد بجميع أنواعه فيه ولا يعترف أن غير الله أهل لحقيقة الحمد لله الذى هو الثناء باللسان على جميل المحمود بصفات الكمال الذاتية كالعلم والقدرة ، والملك ، والعلو ، والغنى، وبالصفات المتعدية الى غيره كالانعام والاكرام ، والاحسان ، فالله سبحانه علام العيوب كاشف الكروب وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو يعلم السر وأخفى ، وهو القادر الغني الحميد ، والعالى المجيد ، وهو الكريم ، خلق كل شيء فأحسن خلقه ، يجيب المضطر اذا دعاه ويرحمه فى كل حال ابتداء واستجابة . فالحمد على حقيقته انما يكون له وحده والشكر الحقيقى باللسان والقلب والجوارح والاركان ، انما يكون لله الملك العلام ، فهو (رب العالمين) ، ومالكهم والرب السيد ، والمالك المدبر والمعبود ، والمصلح والجابر والقائم ، وكل ذلك حقيقة فى صفات الله مجاز فى غيره فكلمة (الرب) هكذا بالتعريف إسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال فى غيره الا بالاضافة ، مثل رب المال ، ورب الدار ، ومنه قول يوسف عن العزيز (انه ربى أحسن مثواى) ، وقوله (أذكرنى عند ربك) ·

فالله سبحانه رب الارباب ، يملك المالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه وكل رب سواه غير خالق ولا رازق ليس له ملك بل هو ملك غيره ، طرأ عليه ملكه الذى هو آيل الى غيره منتزع من يديه وما ملك الا يسيرا وان عظم فى عينيه وعيون غيره ما تصرف فيه ، أما الله سبحانه فهو (رب العالمين) ، والعالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله سبحانه ، من الجن والانس والملائكة والشياطين ، ومن الحيوانات والنباتات والجمادات فى السماوات والارضين وما بث فيهما من دابة ، كل شيء فى الوجود قد خلقه وربه وملكه وتصرف فيه ، وكل هذه العوالم خاضعة له ، أتته طائعة تسبح بحمده ، بلسان الحال ، أو بلسان الحال والمقال : (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فسبحان الله ، والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر.

اتقوا الله عباد الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، اللهم انا نحمدك ونستغفرك ونتوب اليك فاغفر لنا وارحمنا وتب علينا ، وانصر ـ اللهم ـ الاسلام والمسلمين ، واخذل أعداءك من الكافرين ، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله ، وعلى آله وصحبه ومن سلك منهاجهم الى يوم الدين ·

عباد الله ، ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ·

الفاتحة سر من أسرار الله لا يعرفه الا مولاه

سليمان المدنى

الحمد لله الواحد المنان ، الذى بيده الجزاء والغفران واشهد أن لا اله الا الله الذى وسعت رحمته الاكوان ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى اكرمه ربه بمعجزة القرآن ، وعلمه ما يحتاجه الانسان ، من متطلبات الحياة على مدى الزمان ، وحبب اليه التقوى والايمان ، فاهتدى بفضل الله الى معرفة الرحمن ، وطفق يسعى جاهدا مترصدا أوجه الخير والاحسان ، كي ينال رضا الله يوم العرض والامتحان .

اما بعد ، أيها المسلمون ، فان الله جل جلاله ، وتعاظمت قدرته ، قد علمنا كيف نحمده ، ونثنى عليه ونشكره ، وكيف نوحده ونعبده ، ونستعينه ونمجده ، لنحظى بعفوه يوم الرجوع اليه ، والوقوف بين يديه ، خاضعين متواضعين لسلطانه ، متوسلين اليه بلطفه وصفحه ، طائعين لاوامره منتثلين لنواهيه ، طامعين فى رحمته ، وجزيل ثوابه ، متعهدين بتطبيق أحكامه ، خوفا من عذابه ، وشدة عقابه ، تائبين متضرعين لجلاله ، متوسلين اليه بقوله : « **اياك نعبد واياك نستعين** » متعهدين بأن لا نعبد الا اياه وأن لا نطلب المعونة من سواه ، واننا فى حاجة الى رضاه ، فهو الذى خلق كل شيء بقدرته ، وسير كل شيء بمشيئته ، سبحانه من عظيم عليم ، خبير حكيم ، حليم رحيم ، بيده مصدر الحياة والمماة ، وبيده التصرف المطلق فيما مضى وفيما هو آت ، وقد عاهدناه ألا نعبد أحدا سواه ، مما هو صائر الى زوال وهلاك ، أو ذوبان وتلاش وانفكاك ، وقد فوضنا أمرنا اليه ، وتوكلنا عليه « اياك نعبد واياك نستعين » .

(*) خطبة الجمعة ليوم 27 جمادى الاولى 1398 هـ ـ 5 مايو 1978 م .

نعبدك يا ربنا ونستعينك ، لانك محيط بنا وفوق ادراكنا ، تراقبنا حيث كنا ، وأنى اتجهنا ، اننا نخشاك ، فانك ترانا ولا نراك « لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » قد حررتنا من العبودية والاستذلال ، وهيأتنا لطاعتك حيث السمو والشرف والكمال ، فحصرت العبادة فى عظمتك وعلاك ، وحررتنا من الخضوع والخنوع لسواك ، فتحرر الضمير البشرى من الاوهام ، ومن الاساطير وعبادة الاصنام ، ومن فساد الطباع والاطماع ، وسيء الاوضاع ، فعاد الى الله بعد انقطاع ، يدعوه ويرجوه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضّالين » ، أي ألهمنا الطريق الهادى ، الطريق السليم ، المعبد الواضح المستقيم لا اعوجاج فيه ولا ظلام ولا تاثيم ، ولا وسوسة شيطان رجيم ، وأرشدنا اليه ووفقنا الى اتباعه • والهداية هي الارشاد الى الخيرات قولا وفعلا ، وهي من اللـه تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، « صراط الذين أنعمت عليهم » أي أهدنا طريق الذين كرمتهم بالطاعة ، وحسن العبادة وجزيل المثوبة ، وقلت فى حقهم وقولك الحق : « ومَن يطع اللـه والرسول فاولئك مع الذين أنعم اللـه عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » • « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ، والمراد بالمغضوب عليهم والضالين : كل من حاد عن جادة الاسلام من أي فرقة ونحلة ، ومن هؤلاء اليهود ، الذين وصفوا بالنكران والجحود ، فقد غضب الله عليهم ولعنهم « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار » فاليهود ، قد فسدت أخلاقهم ، وانحرفت ارادتهم ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، لذلك لعنهم الله « وباءوا بغضب من الله » وأخص أوصافهم الغضب كما قال تعالى : « **من لعنه اللـه وغضب عليه** » ، أما الضلال فهو من أخص أوصاف النصارى كما قال تعالى : « **قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** » فتبين من الآية الكريمة **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » أن الفئتين الضالتين هم اليهود والنصارى • قال تعالى : « **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل** » ، وقال : « **من يضلل الله فلا هادي له ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** » •

اللهم وفق هذه الامة لحفظ كتابها ، وانشره بين ابنائها وبناتها ، فيتعلموه واهدهم سواءَ السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى أمرنا بالطاعة ، ونهانا عن المعصية ، نحمده ونشهد أنه الواحد الاحد الفرد الصمد ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، صلى الله عليه وعلى آله ورضي الله عن أصحابه ، والتابعين لنهجه الى يوم الدين ·

اما بعد أيها المسلمون ، فان بعثة محمد عليه السلام ، جاءت لتثبت قواعد الاسلام ليستبشر من آمن واستقام ، وطبق ما أمره الله من أحكام ، فيجازى بالاحسان والاكرام·

هذا ونجد فى سورة الفاتحة توحيد الله فى قوله تعالى : « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم** » ، وشؤون الآخرة فى قوله : « **ملك يوم الدين** » وسائر الاحكام من اوامر ونواه وعبادات واعتقادات فى قوله : « **اياك نعبد واياك نستعين** » والشريعة كلها فى قوله : « **اهدنا الصراط المستقيم** » وذكر الانبياء والصالحين والشهداء وغيرهم فى قوله : « **صراط الذين انعمت عليهم** » · وذكر طوائف الكفار والمنافقين والفجار ، فى قوله : « **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » ·

فهذه السورة ، اذن ، جمعت أغلب الكليات الاساسية فى التصور الاسلامى ، ومنها توحيد الله ، وتقرير حقيقة العلاقة بين الله والعباد والاعتقاد بالآخرة ويوم الجزاء ، ولهذا سميت أم القرآن ، بالاضافة الى كونها تقدم على سوره تقدم الام والاصل ، كما سميت فاتحة الكتاب ، لانها يفتتح بها كتابه المصاحف ، ويقرأ بها فى الصلوات ·

أيها المسلمون ، جاء فى صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لي ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، اذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله : « **حمدنى عبدى** » ، واذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله اثنى على عبدى ، فاذا قال : (**مالك يوم الدين**) قال مجدنى عبدى ، واذا قال : (**اياك نعبد واياك نستعين**) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل · فاذا قال : (**اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**) قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل ·

ولعل هذا السر هو الذى جعل الفاتحة تتلى الزاما في الصلوات الخمس سبع عشرة مرة ، فضلا عن النوافل ، الحوافل ، من قيام فى أيام الصيام ، لزهاد عباد ألفوا النظام والقيام ٠

اللهم زدنا علما وفهما ، ومواعظ وحكما ، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين ، اللهم أعنا على قيام هذا الدين ، واجعله نورا مشعا فى قلوب المؤمنين ، آمين والحمد لله رب العالمين ٠

عباد الله :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » ٠

اللـــه الـرحمـــن الـرحيـــم

أحمد حمـانى

الحمد لله الذى أنزل الينا كتابه المبين، على رسوله الامين، هدى ورحمة للمتقين، ونشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الامين ، بلغ ما أنزل اليه من ربه الى العامير ، فصل اللهم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ٠

أما بعد ، أيها الناس فان خير الحديث كتاب الله ، وأفضل الذكر أن يتلى لفظــه ويتدبر معناه ، وقد وجب على كل مصل أن يقرأ فاتحة الكتاب فى كل ركعة من ركعاته ويتلو قوله تعالى ٠ **(الحمد لله رب العالمين)** فيعلن الثناء بالجميل لله وحده لا يشرك به سواه لانه الملك الحق ، المتصف بالكمال المنزه عن النقصان ، وهو رب العالمين ، من الانس والملائكة والجن والشياطين ، وكل ما فى الكون من سماوات وأرضين ، وهو خالقهم ومالكهم ومدبرهم ، والقيوم عليهم ، لا يشاركه فى ملكه أحد ، وكل ملك غير ملكه باطل ، طارىء على صاحبه منتزع من يده ، آيل الى غيره ، وكل مليك ســواه عاجز لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا الا ما شاء اللــه فالله ــ سبحانه ــ رب العالمين ، مرهوب الجانب من الخلق أجمعين ، وهو القاهر فوق عباده ولكنه (الرحمن الرحيم) «الرقيق الرفيق لمن أحب أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه لمـــا استحقه بسوء فعله » ولا يظلم ربك أحــدا (1)

والرحمن الرحيم « أسمان من أسماء الله الحسنى ، وصف بهما نفسه اثــر ما يقتضى الترهيب ، وهما مشتقان من الرحمة على صيغة المبالغة ، وفى الرحمة ــ لغة ــ

(*) خطبة الجمعة ليوم 20 ــ 5 ــ 1398 هـ ، 28 ــ 4 ــ 1978 م ٠

(1) هذا عن تفسير ابن عباس رضى الله عنهما نقل بلفظه كما رواه ابن جرير بسنده فى تفسير « الرحمن الرحيم » من البسملة ، أنظره فى الجزء الاول ص 44 ٠

الرقة فى القلب والشفقة والرافة والحنان مما يبعث على الرفق والعطف والاحسان ٠ فالرحمة بمعناها اللغوى محال على الله وانما المقصود اثرها وهو الاحسان ٠ والله رؤوف رحيم رفيق ٠ جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله ، وانه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » .

والرحمن أشد مبالغة من الرحيم ، وهو اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ولجميع الخلق فى الدارين ، اذا سئل أعطى ، وكم من مسىء هو أهل للعقاب الشديد أدركته رحمة الله فى الشدة.وهو اسم خاص بالله لا يسمى به غيره ولا يوصف به أحد سواه ، وقد أنكرته قريش ، كما قص الله عنهم (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ انسجد لما تامرنا وزادهم نفورا) والظاهر أن انكارهم انما كان جحودا وتعنتا وعنادا . فان الرحمن مشتق على صيغة (فعلان) للمبالغة ، وهذه صيغة موجودة فى اشعار العرب وكلامهم ٠

أما الرحيم فانه على صيغة مبالغة من الرحمة والشفقة والرقة والحنان ، وهو من أسماء الله الحسنى ، أي الشديد الرحمة اذا سئل أعطى ، واذا لم يسأل غضب ، ولكن هذه الصيغة لا تختص بالله وقد وصف بها نبيه فى قوله تعالى : **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)** أي أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يسلم قومه ويستجيبوا ، عظيم الرأفة والرحمة والشفقة بالمؤمنين،أحسن لهم من أمهاتهم ٠

فمن أسماء الله الحسنى ما يجوز أن يوصف به غيره ، ومنها ما لا يجوز أن يسمى أو يوصف به غير الله ومن هذه أسم الجلالة ، والرحمن ، والرزاق ، والخالق ، والرازق يقال عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرازق أو الرزاق وعبد الخالق . وخير الاسماء ما عبد أو حمد ، وقد عمت رحمة الله الكون وشملته ، ثم خص الله برحمة منه المصطفين من عباده فهداهم الى الصراط السوى فسلكوه وآمنوا به وبرسله وكانوا من المتقين قال تعالى : **(ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون)** ، وممن يرحمهم الله من رحموا غيرهم فقد جاء فى الحديث الصحيح قوله (ص) (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء) وفى حديث آخر انه صلى الله عليه وسلم قال : (انما يرحم الله من عباده الرحماء) ٠ وفى حديث آخر أن رجلا دخل الجنة فى كلب عطشان يأكل الثرى من شدة عطشه فرحمه واستخرج له الماء من بئر فسقاه (1) فاتقوا الله عباد الله ، وتعاملوا بالرحمة

(1) أصل هذا فى الصحيحين ، والموطا وأبى داود وابن ماجة ٠

فالله سبحانه هو ملك يوم الدين ، له الحكم وحده ، لا يتكلم أحد فيه الا باذنه ، وقرئت الآية (ملك يوم الدين) و (مالك يوم الدين) وكلتا القراءتين سبعية متواترة تصح التلاوة والصلاة بها . وكلا الاسمين من أسماء الله الحسنى ، فالملك مأخــوذ من الملك كما فى قوله تعالى : « **لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار**[1] » وقال : « **قل أعوذ برب الناس**) ، وقال : « **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء** » وهذا فعل الملك المالك . ومعنى (ملك يوم الدين) أنه لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا . انه ليوم الفزع الاكبر ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئــذ للــــه » .

« يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل أمرى منهم يومئذ شأن يغنيـــــه » .

فيأيها الانسان : ماذا أعددت لذلك الزمان والمكان ؟ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

اللهم اليك المرجع والمفزع فانا مذنبون مقصرون ، قد ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، اللهم أنا نعوذ بك من سوء المنقلب وعذاب النار ، ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سياتنا وتوفنا مــع الابــــرار .

وصل اللــه وســلم على نبيك ورسولك محمد وعلى جميع الانبيــاء والمرسلين ، والمؤمنين والمؤمنات الى يوم الدين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(1) وفى آية الحشر: هوالله الذى لااله الا هو الملك القدوس .

افطـــار المجاهـــدين فى رمضـــان

الســـــؤال :

اثناء حرب التحرير ايام الثورة الجزائرية (1374 ـ 1382 هـ) افطر المجاهدون من الثوار بأمر من القيادة العليا فى كل شهور الصيام التى مرت عليهم فى الجهاد بنـاء على فتـاو شـرعية ٠

ان كثيرا مـن المجاهدين يتساءلون اليوم : ماذا يجب عليهم أن يفعلوا ؟ ايجـب عليهم قضاء هذه الشهور فقط ؟ أم عليهم الاطعام مع ذلك ؟ أم يكفى عن ذلك كفارة ما ؟

افيـدونـا بمـــا يجـب مـاجـوريـن ٠

جماعـــة من المجاهديـــن
الجـزائـر

الجـــــواب :

« افطـار المجاهدين فى شهـر رمضــان »

ـ الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ،

افطار المجاهدين فى شَهر رمضان مأذون فيه اذا كان الافطار اقوى لهم على لقاء عدوهم ، وكانوا فى المعركة أو على وشك المعركة ، لان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم أفطره وأذن لاصحابه فى فطره عام الفتح (السنة الثامنة من الهجرة) فمنهم

من افطر اخذا بالرخصة ومنهم من صام حتى قربوا من مكة فقال لهم : (انكم قد دنوتم من عدوكم والفطر اقوى لكم) فمن الصائمين من افطر ومنهم من أصر على الصيام حتى قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : (انكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فافطروا) فكانت عزيمة ـ كما يقول أبو سعيد رضي الله عنه ـ فافطروا كلهم.

وقد استنتج العلماء من قوله صلى الله عليه وسلم ـ والفطر اقوى لكم ـ علة للرخصة ، فلم يحصروا جواز الافطار فى السفر للجهاد وانما اباحوا للمجاهد أن يفطر ولو كان مقيما اذا كان الفطر أقوى له على لقاء العدو • وبذلك أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية للعساكر الاسلامية المحاصرة بدمشق من طرف التاتار • وبذلك ـ أيضا ـ أفتى علماء الجزائر وعلماء مصر للمجاهدين الجزائريين أثناء حرب التحرير التى نشبت عام 1374 هـ (1954 م) فافطروا أثناء سنوات الحرب كلها التى دامت سبع سنوات وبضعة أشهر •

« وجوب القضاء عليهم بعد انتهاء القتال »

كل من افطر فى رمضان لرخصة ثم زال عنه العذر المبيح لافطاره وجب عليه قضاء عدة الايام التى أفطرها ان كان قادرا على الصيام لقوله تعالى : « **فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** » •

فهؤلاء الجنود الذين كانوا فى لقاء العدو أثناء حرب التحرير الجزائرية وأدركهم صيام رمضان فى سنواتها السبع فافطروا يجب على كل من بقي بالحياة منهم قضاء صيام عدة الشهور التى أفطروها ولا يغنى عنهم شىء آخر بدل الصيام ، بل لابد من صيامهم اياها • فمن صامها عام 1382 هـ أي عام الاستقلال فلا شيء عليه زائدا عن الصيام •

ومن صامها من بعد أن مر على ذلك شهر من شهور الصيام فان عليه ان يطعم ـ مع الصيام ـ مسكينا عن كل يوم يصومه كفارة التأخير •

ان الجهاد فى سبيل الله أفضل أعمال المسلم بعد الايمان بالله كما جاء فى الحديث الصحيح • والجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الذى يكون لاعلاء كلمة الله ونصر دينه • وكانت حرب الجزائر جهادا واجبا على كل صغير وكبير ورجل وامرأة من المسلمين لان العدو فاجأهم فى بلادهم • وقد نصر الله هؤلاء المجاهدين وطرد

العدو من بلادهم بحول الله وقوته لا بحولهم وقوتهم · وكل من كان مخلصا فى جهاده يرجو ثواب الله ويخشى عقابه فان عليه ان يتمسك بدينه ، ومن ذلك أن يصوم ما أفطره من رمضان قضاء للدين ــ ودين الله أحق أن يقضى ــ وشكرا لله على نعمته · وان له على صيامه ــ والصيام انما يكون لله ــ ثواب الله الجزيل يجزيه به كما وعد فى قوله فى الحديث القدسى : (كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به) ·

ان أحق الناس بشكر الله على هذه النعمة لهم هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، فليصوموا عدة الايام التى أفطروها حتى يكتب الله لهم أجرهم كاملا غير منقوص ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وليس احسن من اقامة أركان الدين التى منها الصيام

رئيس المجلس الاسلامى
أحمد حمانى

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

الاســلام وكـرامــة الانســان

د. عبد السلام الهراس
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الرباط ـ المملكة المغربية

بسم اللـه الرحمن الرحـيم

والصلاة والسلام على أكرم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

لست أدرى كيف أستطيع ان أصور شعورى وقد رأيت وشاهدت هذا الشباب المؤمن الذى أمدنا بشعلة من الأمل بعد أن كاد اليــأس يستولى على نفوسنا ، هذا الشباب الذى فى الحقيقة أعطانا أكثر ممـا أعطيناه ، استفدنا منه عزما وارادة واصرارا على اعلاء كلمة الله وعـلى توثيق عرى المحبة بين المسلمين فجزاكم الله خيرا ٠

وبهذه المناسبة أشكر من قلـبى الأخ الوزيـر على حسن طنـه والاخوان الذين تفضلوا باكرامنـا وأصروا أن نلقى هذه الكلمـة على الرغم من الحالة الصحية التى تعيقنى فى جسمى ٠

لست أدرى أيضا كيف تستطيع أن تتســرب هذه الكلمـات الى نفوسكم والى عقولكم والى مسامعكم بعد هذه المحاضرات العــديدة القيمة التى استمعتم اليها ، على كل هذا جهد مقل أساهم به فى هذا الحفل الاسلامى ، رجاء من الله بان يسدد أقوالنا وأعمالنا لخـير المسلمين ولخـير الأمة الاسلاميــة ٠

فى الاسلام وكرامة الانسان ، أحب أن أتناول **نقطا ثلاثا** ، تكريم الانسان بصفة عامـة ، انعكاس هذا التكريم فيما يتصـل بالحكم ، وانعكاسه فيما يتصل بالمال ، والنقط الثلاث مرتبطة فيما بينهـا أشد الارتباط، ولقد اقتصرت على مظهرين من مظاهر التكريم الاسلامى للانسان دون المظاهر الأخرى لأن أهم ما يشغل بال شبابنا اليــوم **الحكم والمال** ٠

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م ٠

الاسلام فى الحقيقة ثورة لرد اعتبار الانسان ومكانته الحقيقية بعد أن مرغتها بعض المجتمعات وبعض السلط التى وجهت عبادة الانسان من السماء الى الأرض ، ولذلك كانت مهمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تهدف توعية الانسان بكيانه وكرامته وتمكينه من ممارسة تلك الكرامة فى حياته الواقعية ، وخلال مجالات علاقاته المختلفة تلك حقيقة الرسالة المحمدية . فالانسان اقترن تكوينه بتكريمه ، ولقد أمر الله الملائكة بالسجود له ، فاستجابت للامر الا ابليس ، وهو مظهر قوى الشر الذى **«أبى واستكبر وكان من الكافرين»** وخلق الله الانسان فى أحسن تقويم وزوده باستعدادات هائلة كالمعرفة والعلم والاكتشاف اذ علمه الأسماء كلها ، واستخلفه فى الارض لتعميرها بالعدل . ولكن تعمير الارض لا يتحقق الا بتحرير الانسان من النوازع التى تمسخ انسانيته وتمزق روابطه وتبعثه على التنافر والتناحر ، لذلك أمر الانسان بأن يعيش متحررا من كل ما يعرقل مهمته فى الحياة ومقتضيات استخلافه فى الارض ولذلك خاطب الله هذا الانسان بقوله تعالى : **«واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»** وهناك تتحقق كرامة الانسان اذ تتحقق حريته وتحريره أمام الاشياء والاشخاص ، لأن عبوديته المطلقة لله وحده تستلزم تحرره الكامل المطلق فى نفس الوقت ، ولهذا لا يمكن أن يقتنع أى واحد بتطرف أولئك الذين يعبدون الله ويخضعون للبشر فيما هو عصيان لله فى نفس الوقت ، ولا يمكن أبدا أن نسمى هؤلاء متحررين وانما هم مزدوجون ، والازدواجية هى دائما على حساب عبوديته لله . ولهذا كان أول ما دعى اليه الاسلام ابطال عبادة غير الله من الاشخاص والاقوام والاشياء . ان فى تلك العبادة امتهانا للعقل وعصيانا للفطرة وكفرانا بالانسان وسحقا لكرامته وتعويقا لمهمته فى الحياة ، ورسالته فى هذا الوجود وكان اقسى ما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم مصارعة تلك الصنمية المتغلغلة فى النفوس التى لوثت الفطرة وعفنت الحضارة وهددت وجودها واستمرارها وقد تجسدت تلك الصنمية فى أرباب الحكم فى الفرس والروم وأدعياء الدين ولهذا أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم شعاره الخالد : **«لا اله الا الله»** .

وهنا كان منطلق الدعوة الاسلامية التى دعت أهل الكتاب الى

التوقيع على ميثاق تحرير الانسان وتحرره : **«قل : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون »** ٠

وقد الح الاسلام لذلك على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا ينزلق بعض ضعاف النفوس فيؤلهونه ، وعندما خاطب عامر بن صعصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله **يا رسول الله انت سيدنا وذو الطول علينا فانتهره النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : «السيد الله»لا يستهوينكم الشيطان** ٠ واستئصال عمر لشجرة الرضوان كان الدافع الاحتياط حتى لا تتجه النفوس اليها بالتقديس أو ببعض مظاهر العبودية ٠ وان عزل خالد بن الوليد كان أيضا بهذا الدافع حتى لا يظن الناس أن النصر فى سيف خالد وانما يعتقدون أن النصر من عند الله ٠

وأما الاعتداء على كرامة الفرد أو الجماعة فى الاسلام فيعتبر تهديدا للنظام يجب مقاومته والاقتصاص من مرتكبيه **«ولكم فى القصاص حياة يا اولى الالباب »** ذلك أن الظلم محرم ، **« انى حرمت الظلم على نفسى»** كما قال تعالى فى حديث قدسى **«وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا»** وان الفرد والجماعة يتحمل كلاهما مسؤلية الاعتداء على كرامة الانسان وعزته ٠

ومما ينعكس عليه حرص الاسلام على كرامة الفرد والجماعة فى المجتمع الاسلامى نظام سياسى ، هذا النظام الذى يقوم على أساس انه تعبير عن ارادة الانسان لانه يحقق مشاركة الجماهير فى تسيير شؤون الحكم ، بصفة مباشرة لتحقيق الاهداف المطلوبة فى دولة الاسلام ٠ **«كنتم خير امة آخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا»** ٠

وتنجلى عظمة الاسلام حفاظا على كرامة الانسان المؤمن فى اتاحة الفرصة أمام الجماهير لممارسة واجبها فى القيام بدورها الايجابى فى مجال الحكم والادارة ، يقول الدكتور سليمان الطماوى عن التجربة الاسلامية الفريدة بعد أن تحدث عن مشاركة الجماهير فى النظم

الديمقراطية عن طريق المجالس النيابية ـ وسليمان طماوى عنـــده كتاب نفيس عن ادارة عمـ ررضى الله عنه ـ مقارنه بين الاداريـــــة العمرية والادارة الحديثة ، وهو كتاب نفيس • يقول فيه :

• • • ولكن تبين بالتجربة بعد ذلك أن قصر دور الشعب على هذا الجانب أى الجانب النيابى يجرد الحكم الشعبى من روحه ويجعله مجرد أشكال مسرحية ، قد لا تختلف عن الحكم المطلق الا من حيث المظهر ، ومن هنا ارتفعت الصيحة الحثيثة بافساح مجال أكبـــر للشعب لكى يشارك مباشرة لا عن طريق نواب يمثلونه فى مجال الحكم والادارة • • • وثارت كتب الفقه السياسى والادارى فى أوروبا تتحدث عن اصطلاحات الديمقراطية المباشرة ، أو الديمقراطية نصف مباشرة مظاهرها المشهورة ، فى استفتاء شعبى واعتراض شعبى ، واقتراح شعبى ، وحق الجماهير فى انهاء نيابة النواب أو البرلمان أو رئيـس الجمهورية قبل ميعادها بل ووصل الامر الى حد الحديث عن ديمقراطية الادارة ، ولكن بالرجوع الى تاريخ عمر نجد أنه أدرك بصدقه والهامه كل المعانى السابقة بل ووصل فيها من حيث التطبيق الى أبعـد ممـا وصلت كثير من الدول التى تفاخر بنظمها السياسية والاداريـــة ، والفرق بين ما أخذ به عمـــر وما تأخذ به الدول العصرية يكـمن فى الصياغة لا فى الجوهر ، ولقد أخذت مشاركة المسلمين فى شـــؤون الحكم صـــورا ثـــلاث :

1 ـ التعاون فى الوصول الى الحكم ، الى حكم الشرع السليـم في القرآن أو السنة •

2 ـ محاولة كشف الاخطاء الملازمة للحكم •

3 ـ الوصول الى الحل السليم فيما يجد من أمور •

وأسلوب الحكم الذى سلكه المجتمع الاسلامى الاول بعد موت رسول الله (ص) أطلق عليه اسم الخلافة التى تتباين ونظام القيصرية والكسروية التى كانت ذات نظام معاصر لنظام الاسلام ، اذ أن أمـر المسلمين شورى بينهم ومبدأ الشورى مقدس فى الاسلام لا يجـــوز الاعتداء عليه أو تزييفه لان ذلك اعتداء على كرامة الجمـاعة والافراد فى حقيقة الامر ومحاولة لتزييف ارادة المسلمين والانحراف بأهداف مجتمعهم ، وان الرسول (ص) لم يشأ أن يتدخل فى ارادة المسلمـين

بأن يعين لهم أميرا عليهم ، وقد توفى (ص) تاكا الامر للمسلمين يتشاورون فيه ويختارون من يرونه صالحا لسياسة الدين والدنيا ·
وهو نفسه (ص) يقول : «لو كنت مؤمرا على أمتى أحدا دون شورى المسلمين لامرت ابن أم عبد» ويعنى عبد الله بن مسعود ·

لقد تركز هذا المبدأ فى ضمير هذه الامة ولذلك ناظر دونه كثير من المسلمين وحتى أولئك الذين اغتالوا هذا المبدأ وهو لايزال فى أطوار نموه الاولى حافظوا على شكلية البيعة التى هى صورة من الخضوع لارادة المسلمين ·

ان انطلاقة الاسلام الكبرى وانتصاراته المدهشة ما كانت لتتحقق لولا شيوع اليقين بين الجماعة الاسلامية وافرادها لان النظام الاسلامى هو تعبير صادق عن ارادتهم وتطبيق أمين للميثاق المشترك الامر الذى أناط بكل فرد فى هذه الجماعة مسؤولية البناء والصيانة ·

ولقد تحمل الفرد هذه المسؤولية اقتناعا منه بجدواها فى توفير شروط سعادته ، وظروف كرامته ، وتلاحظ علاقة وثيقة بين تحرك وامتداد الخط البارز واتجاهه نحو الاسفل ، وبين الاستبداد وتعطيل مبدأ الشورى ، لان الحكم اذ ذاك اغتصاب وطغيان واعتداء على الكرامة واهانة للمسؤولية الجماعية ، ومن شأن الحكم الذى لا يفتح المجال لافراد المجتمع لممارسة كرامتهم وحريتهم فى تسيير شؤون الحكم أن يفقد نصيبه من الثقة والاحترام ، ويتحول الطرفان الى أعداء · يتبادلان البغضاء ويتوجس كل طرف من الآخر الخوف ويتوقع الشر وتستولى اذ ذاك على المجتمع ورجال الحكم نزعة فردانية التى تمزق الشبكة الاجتماعية ، على حد تعبير استاذنا مالك بن نبى ، ويخمد الاحساس بالمسؤولية الجماعية وبذلك يفتر الحماس من أجل البناء ، بل ان معاول الهدم تكثر وشيوع اللامبالات يتفاحش ، ومجموع ذلك يساوى حتما الانهيار المحقق ، فقضية الاندلس عندما ندرسها ماذا نجد ؟ كثرة العلماء والعباقرة ، والكتاب ، والشعراء ، ولكن المجتمع بالذات كان يتدهور ، لان كرامة الشاعر والعالم كانت مسحوقة ، كرامة المسلم كانت مسحوقة ، فى حين المسيحية كانت اذ ذاك بدأت بحضارتها وأصبحت تعطى كرامة لأفرادها ، ولهذا نجد مثلا ملوك الطوائف يتعاونون على بعضهم ، ويتآمرون على المسلمين بأنفسهم ، ويبلغ الذل

ببعضهم أن يقدم الجزية الى النصارى ، ويقدم هدايا كبيرة جدا ويأتى ملك نصرانى ويهدى قردا لأمير من هؤلاء الأمراء . يهدى له قردا ويقول له انك تساوى عندى هذا القرد .

الاندلس كانت عظيمة ، زخارف المساجد .. ليتهم ما تركوا لنا المساجد مزخرفة وتركوها لنا بسيطة ، ليتهم ما تركوا لنا هذه الكتب الكثيرة التى نسميها «التاريخ» وتركوا لنا « لا اله الا الله » فى قرطبة .

ندرس تاريخ المسلمين نجد من يتغـــذى بمعالق من ذهب وفضة وكل لقمة بملعقة ، ونام بعض الوزراء فى كل ليلة فى بيت فى غرفة خاصة على مدار السنة كلها . كل ليلة فى بيت فى غرفة مؤثثة كأنه الشمس يتنقل من برج الى برج ، وبجانبـــه البؤس المدقع ونقابات الشحاذين ودور العهارة والفحش ، ونجد بعض العلمـــاء والصوفية يعقدون مجالس السكر ويقول ابن تيميـــة فى بعض كتب التاريخ أن بعض القضاة بلحاهم الطويلة يسكر وتذهب به النشوة الى أن ينقع هو واخوانه لحاهم فى الخمر حتى اذا امتلأت بالخمر ابتدأوا يرشون على بعضهم البعض، فى حين كرامة الاسلام مهانة ، كرامة المسلم مسحوقة كيف يتمنى لهؤلاء الخير ، كيف يتمنى لهم الخـــير أبدا لا يتمنى الخير أبدا لهؤلاء ، لا يتمنى لهم الانتصار بل سيكون عونا عليهم مع الأعداء كما وقع بالفعل فى معركة العرقاء ، وجاء الموحدون الطيبون والمرابطون وأرادوا ... ولكن الخيانات ... لماذا لأن كرامـــة الأندلسى كانت مسحوقة ، كما نرى ذلك فى أدب الأندلس ، لم تبق كرامة بل شعراء يمتدحون ابن عباد لأنه أعطى الجزية ويعتبرون هذا من انتصار الاسلام، لأنه أعطى الجزية عن يد وهـــو صاغر ، ومجالس اللهـــو . وكرامة المسلمين وأمانة الله فى عنق الحكام أن يعيدوا كرامة المسلمـــين ينبغى ان أراد المسلمون أن يعودوا عمليا الى الاسلام أن يعيدوا كرامة المسلمين وأمانة الله فى عنق الحـــكام أن يعيدوا كرامـــة المسلمين للمسلمين ، وأن يشعروهم بأن الدولة دولتهم ، وأن يقتنع المسلمون بأنها دولتهم ، وبهذا استطاع المسلمون خلال التاريخ أن يظهروا هذه العظمة وهذه المعجزات فى المقاومة ، أنا ابن الجبل وأعرف أن ثمانيـــة اشخاص أو عشرة فى قبيلة أنجرة أوقفوا جيشا قوامه 1000 مـــن الأسبان ، انهم فقط عشرة ولكنهم لا يتركون صلاة الفجر ويعتقدون أن هذا واجب ، وليس من ورائهم جيش التموين ، فتموينهم قليلا من

ملكية المال فى الاسلام عندما سئل لمن هذه الغنم التى ترعاها ؟ قال : هى لله فى يدى ، ولقد ترك للمسلمين وقادتهم المجـــال للاجتهاد على ضوء الكتاب والسنة فيما يتصل بتطبيق عملى لهذه الفكرة فى مختلف الظروف والأزمنة والأمكنة ، وقد كان الســـلف الصالح أكثر فهما وانسجاما لهذا المبدأ الاسلامى بحـــكم تربيتهم واتصـــالهم المستمر برسول الله (ص) الذى توفى ولم يخلف شيئا من حطام الدنيا لأهله وأسرته وجعل للأمة حق ارثه بأنها أولى بماله ، وعنـــدما استقرت أحوال المسلمين وتولى عمر خلافة المسلمين أبرز سلوكه وتطبيقاته العبقرية مبدأ الاسلام فى تمكين المســـلمين من التصرف فى مالهم والاستفادة منه على وجه يحقق لهم كرامتهم ، ويمنع عنهم كل صنوف الاستغلال ، وهنا سأقدم لأساتذتى الشباب الذين تعلمت منهم بعض تراثهم الحقيقى ، عندما قال **الربيع بن زياد الحارثى لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس لـيـن لانت ، فرفع عمر جريدة كانت معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أردت بها اللــه ، ومـا أردت بهـا الا مقـاربتى ، هـل تدرى مـا مثلى وما مثل هؤلاء» ، قال : وما مثلك ومثلهم ؟ قال: مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : انفق علينا ، فهل يحـق له أن يستأثر من هذا الشىء. قال : لا يا أمير المؤمنين قال : فكذلك مثلى ومثلهم، أنا رجل أمير على أموال المسلمين لا يحق لى أن أتصرف فى أكثر مما أعطونى** وكتب عمر رضى الله عنه لعامل له ، أن أعطى الناس أعطيتهم وأرزاقهم ، فكتب اليه انا قد فعلنا وبقى شىء كثيـــر فكتب اليه عمر : انــه فيىء من الــذى أفاء اللــه عليهــم ، ليس هــو لعمــر ولا لآل عمر ، وفى الرسالة الرائعة التى كتبها سفيان الثورى ـ هذا هو الفكر الاسلامى الصحيح ـ رضى الله عنه لهارون الرشيد فى شأن عدم شرعية التصرف فى بيت مال المسلمين الا على أساس دستور وفق القرآن والسنة دليل على أن المال مال المسلمين ، فقال هارون الرشيد : تعال نعطيك شيئا من المال ، لقد جاءنــا علمــاء. وأعطيناهم من المال كذا وكذا ، فرد عليه سفيان الثورى رضى الله عنه ، من قال لك أن هذا المال لك ؟ ان هذا المال مال الله ، وهـــو للمسلمين ، ومن قال لك أعطيه للعلماء ؟ أبدا ! فان المال مال المسلمين تنفقه حسب كتاب الله ، وان زدت تكون قد خالفت كتاب اللـــه

والله لآت عندك ، وعنون له الرسالة : من عبد الله الميت الى هارون المغرور ، وقد كان صديقه فى الدراسة ، وتأثر هارون بهذه الرسالة رغم الحاشية الفاسدة التى أغرت هارون بسفك دم هذا الرجل الصالح .

وقد طبق مبدأ التكافل ، وهناك أمثلة كثيرة جدا رائعة كقضية أرض سواد العراق والشام اذ أبى عمر رضى الله عنه أن يقسمها بين المجاهدين وقال انها للمسلمين الى يوم القيامة ولاطفالهم ولليتامى والايامى ولكل المسلمين ، ولا تقسم بين المجاهدين فهى فىء جميع المسلمين ، وقد طبق هذا المبدأ على عهد الخلفاء الراشدين وعلى عهد عمر بن عبد العزيز أيضا ، فقد اجتمعت لدى عامل الكوفة زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب أموال بعد أن أعطى الجند ، فأمره عمر بن عبد العزيز أن يوزع المال على كل من عليه دين فى غير فساد أو يعطى ذلك لمن أراد أن يتزوج ولم يقدر على النفقة والمهر كذلك تعطى الأموال لأهل الذمة لتقويتهم واعانتهم على فلاحتهم ، وكذلك **يقول يحى بن سعيد بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقيا ، فاقتضيتها فطلبت فقراء لنعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم أجد من يأخذها منى قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشتريت رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين .**

وهكذا نرى الاسلام انسجاما مع أساس رسالته وهى الوحدانية ـ وحدانية الله ـ ، والعبادة المطلقة للواحد الأحد ، يقرر أن شعار أمة محمد «**الكرامة الانسانية**» وانطلاقا من هذا المفهوم كان الانسان هو مصدر الحكم والتسيير فى نطاق تعاليم الاسلام ، وكان الانسان هو المرجع فى شأن سياسة المال والتصرف فيه ، وأن الحفاظ على هذا المبدأ لتقع مسؤوليته على جميع المسلمين الذين هم مطالبون للامر بالمعروف والنهى عن المنكر وأى منكر أفضع من أن يعتدى على حق المسلمين بتسيير أنفسهم بأنفسهم لتحقيق عدالة الله فى الارض وأى ذنب أخطر من أن يهجم على مال الله وتمنع الامة حق الاشراف عليه . وتسييره والتصر فـفيه وفق مبادىء الاسلام ، ولكن لن يؤدى المجتمع رسالة فى تحقيق كرامة الانسان الا عندما يفهم الاسلام كحضارة أيى كنظام شامل لحياة الانسان يشمل العقائد والعبادات

والأخلاق والتشريع ، ذلك أن الاسلام وحدة لاتقبل التناقض أو التجزئة أو الاخلال بعنصر من عناصره لان بناءه متكامل متكافل ، وقيامه فى تلك الوحدة وفى تآزر تلك العناصر الأربعة وانسجامها فيما بينها لتكوين المسلم .

ان الاسلام لا يؤدى دوره الحقيقى الا اذ أخذ كله فى السلوك وفى العلاقات وفى المحاكم ، وفى الادارات ، وفى السياسة الخارجية والداخلية ، ولا تخشى عدوا أبدا (**ان تنصروا الله ينصركم**) فهناك من يقول لو نقيم الاسلام فالاستعمار سيهجم علينا ، فالله هو الذى خلق هؤلاء المستعمرين وخلق الأرض والكون فيجب ألا نخشى أحدا ونعلن ديننا ، فنحن لا نريد اعتداء بل نحن نحب الانسانية كلها نحب لها الخير والتقدم ، ونحب لها التعاون والرفاهية ، ولكن أتركونا نعبد الله أحرارا نحن أيضا ، نريد أن نعبد الله ولا نريد أن نعتدى على أحد ، اننا نريد أن نعبد الله ولا نريد أن نعبد أصناما ولا أوثانا نريد أن نقيم شريعة الله فيما بيننا (**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا**) **صدق الله العظيم** .

والسلام عليكم ورحمة الله



من مسالك اصلاح الفكر والاخلاق

الشاذلي النيفر
أستاذ بالكلية الزيتونية
ورئيس جمعية تحفيظ القرآن الكريم
الجمهورية التونسية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ٠

سعادة الوزير ،
حضرات الاساتذة ،
سادتي ، سيداتي :

سأتحدث اليكم بصراحة تطرقا لمشاكلنا ، حتى نسعى لأزالتها، وأريد في هذه الكلمة أن نتبين بعض ذلك ، فاننا لا تنسينا نشوة النصر الذي جلب استقلال شعوبنا فاصبحت أعلامنا خفاقة ، لاتنسينا أننا على أية عقبة ، حقا ان الاستقلال لم يحصل لشعوبنا هينا ، وبالاخص في هذه الارض أرض الكفاح التي أقضت مضجع الاستعمار وكافحته منذ وضع أقدامه فيها ، ولكن هذا الاستقلال الغالي على عزته وفداحة ثمنه ومكانته في نفوسنا ، وراءه ما وراءه ، وهي هذه المعركة التي نخوضها ، فبحول الله لا بد أن ننتصر فيها ونخرج ظافرين ، لكن هذا النصر ليس بالامر الهين ، اذ تعرفون أن الصهيونية هي في ذاتها قوة وتمدها قوة من أعظم قوى الدنيا ، ٠

وقد اخترت أن يكون الحديث مسلسلا لفرص اغتنمنا بعضها ولم نغتنم البعض ، بسبب أننا فقدنا مسلكا من مسالك اصلاحنا في في فكرنا واخلاقنا ، معقبا ذلك الاصلاح المنشود ، فالموضوع يتناول حاضرنا لا حاضرنا الزاهي ، بل الحاضر المتجهم ، وآثرت ذلك ليكون نداءا صارخا لنتحفز ونثب عاملين حتى نتخلص مما حاط بنا ٠

وشجعني أن أطرق هذا الموضوع القاسي على النفوس انني القيه في القطر الشقيق الجزائر بلد المجد والكفاح الذي يقدر المواقف

(*)محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بقسنطينة في 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م٠

الجادة ، ويتطلع الى البطولة النادرة ، أتحدث اليكم واني على يقين سأجد آذانا صاغية ونفوسا متعطشة ، وقلوبا مليئة ، بـالايمـــان ستخرج من هذا الملتقى وهي تتقد حماسا وتلتهب ايمانا ، أتحدث اليكم أيها النخبة من شبان الجزائر ، وتونس ، والمغرب ، والاقطار العربية والاسلامية ، لنغتنم هذه الهزة القاسية باقتطاع البلاد العربية وتمزيق أرضها ليتحرك الشعور وتتقد جذوة الايمان ، فهذه الهزة وان كانت شديدة عاتية ، لكن : جزى الله الشهداء كل خير ، وقـد أحيى الامل في نفسي أن نجتمع في أرض هذا الملتقى الفريد مـــن نوعه ، فعوض أن تعقد الملتقيات التي لا نجني منها الا افلاس أفكارنا وانحطاط أخلاقنا ، بما لا يتلاءم والمبادىء الاسلامية وما أكثر تلك الملتقيات،عوض ذلك يعقد هذا الملتقى الذي يعالج مشكلات أساسية تهم المسلمين قاطبة ، وكم ملأ نفسي سرورا وقلبي حبورا الكلمة التي ألقاها سعادة الوزير السيد مولـود قاسم وزيـر التعليــم الاصلي والشؤون الدينية بالجزائر ، حيث رفع القناع وتناول الاصالة الاسلامية العربية ، وكيف نحافظ على هذا الكيان الذي لم يضيعه الأسلاف وان عاشوا في جو مليء بالمخاطر ، ملىء بالتحطيم وكيف نحافظ على الاسرة ، ان طرق المسؤول مثل وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية، ووزير الاعلام والثقافة لهذه المواضيع الاسلامية لبادرة خير ، واسفار عن صبح اصلاح ، وموضوعي هذا لا يتناول الا مسلكا واحدا من مسالك اصلاح التفكير والاخلاق على تعددها ، لأني جئت الى هذا الملتقى ولم أخمر الرأي ، فبمجرد تلقي الدعوة شددت رحلي لانها فرصة يفرض علينا ايماننا أن نأتيها بدون تزويق ولا تنميق ، حتى نكون من الذين يعملون في سبيل الله **(لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)** ، فلم يلهنـــا والحمد لله شيء وآثـــت هـذا المسلك الذي سأتحدث عنه دون غيره ، لاني مؤمن الايمان الكامـل اننا بدونه لا نستطيع أن نصنع شيئا لاني عرضت التاريخ والحاضر وبحثت ما حدث لنا في وقتنا الحاضر من نكبة ، مستلهما من ذلـك هل استفدنا منه فيما مضى باستثناء العصور الذهبية كان التفكير غير مستفيد من ذلك ، أو مستفيد بحد ما ، فخشيت ألا نستفيد من ذلك ، أو نستفيد بحد ما ، فخشيت ألا نستفيد من هذه الهزة فقلت وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين بالتنبيه على ما رأيته سببا في عدم

الاستفادة وبالطبع اذا قضينا على السبب كنـا أخذنـا فى خطـوات الاصلاح ، وقد اقتصرت فى المسلك الوحيد من مسالك الاصـلاح التفكير والاخلاق على جانب واحد منه ، وهو التفكيـر المـؤدى الى الاستفادة من حوادث الدهر العظمى المؤلمة ، وهو موضوع غيـر مدروس من قبل، فهو خوالج نفسية ، واستنتاجات تاريخية ، وصرخة مخلصة فى آذان الذين يسمعون ، تحتل مسالة التفكير الاسلامى المكانة الأولى من اهتمام المصلحين لانها الأساس فى بناء النهضة الاسلامية التى اشرف عليها العالم الاسلامى الحاضر المتطلع لبنـاء صرح اسلامى من جديد بعد تلك الفترة التى مر بها العالم الاسلامى رازحا تحت سلطات أجنبية وبعد هذه النهضات الاستقلالية حرى بالعالم الاسلامى أن يعير هذا الاهتمام للفكر الاسلامى لانه لا يمكن أن نخطو خطوة الى الامام فضلا عن خطوات اذا لم يكن هذا التفكير آخـذا منهجه من الاستقامة والاعتدال فى كنف الرأى الصحيح ، واستقامة التفكير الاسلامى لايمكن فصلها عن القيم الاخلاقية ، فمتى يتجه الفكر الى المنهج الصحيح وبواعث الاخلاق لا تضعفه الجدية فيما يصنع ، فالصلة بينهما صلة وثيقة وكل منهما يتوقف على الآخر ، وينبغى أن نرفع التباسا وهو أن التفكير الذى نرمى اليه هو التفكيـر الجـدى الذى لا يهيم بالناس فى الدين ، أما الذى يهيـم بالنـاس فى الدين فهو وان أينعت به الآداب الخليعة وفنون أخرى لا يبعث الامم مـن مرقدها ولا يجدى نفعا ، بل هو يتماشى والخلق الردىء ، والعـالـم الاسلامى اليوم فى حاجة الى مايثير نفسه وتينع به أممه ، ان المسلمين ما أصيبوا الا من أجل اهمال هذا الجانب فعاشوا حياة الخلوة مـن التفكير الصحيح الممتزج بالاخلاق العالية ، فلا سبيل للوصول الى الغايات والمطامح الا باصلاح التفكير ، وقبل أن نلج الفكرة الاصلاحية نذكر لكم أشياء لتتبينوا بها ولتدركوا ان التفكير من المسلميـن ليس معدوما فى كل عصورهم ، وانما هى عصور انحطاط مرت بنا فأصبحنا فريسة للامم ، حتى الامم الصغيرة التى لاتعد الا بضـع ملايين من البشر ، ولكنها فى حضارة ناضرة تتملك رقعة من رقاع الاسلام تفوقها بالعدد ، ومن المؤسف ان البون اذ ذاك بون شاسع فى التقدم ولندرك ، أذكر أن المسلمين نزلت بهم الحملات الصليبية المسعورة وعرفوا كيف يتخلصون منها ، جاءت الحملة الصليبية

والتفكير الاسلامى مشغول عنها ولكنه غير خامد ، وانما هو فى اتجاهه الخاص وهو التحلل الذى انقاد اليه الرأى العام لاسباب كثيرة منها تلهيته حتى لا ينطلق وينتقد ، فانغمس فى التحلل ، وانساق الى شهواته يرضيها كأنه يعبدها من دون الله ، ويصور جانبا من هذا هجاء أبى نوس لابان بن عبد الحميد الغافقى عن كافر يتمارى بالفكر بالرحمن يريد أن يتصور بالعصبة ، المجانى والهاجى والمهجو سبيهلما سواء وهو التحلل من كل المقومات الاسلامية وحتى العقيدة فى مهب الريح ، يسمح الحكم حين ذاك بمثل هذا التحلل ولكنه ولكنه بالمرصاد لمن يبدى رأيا عاما جديا خشية من اطاحة السلطان فالافواه مكبوتة ، والعقول مغلوبة فى هذه الدائرة ، فبالطبع أن نرى ان الاعلام لا يعمل عمله كما يجب ، وكان الرأى العام اذ ذاك مقصورا على هذه الحالات التى يعيشها ، لذلك لا نجد أن تستطيع الحملات الصليبية أن تتركز فى النقطة التى هى اليوم محل صراع بين المسلمين من جهة وبين الصهاينة ومن وراءهم من جهة أخرى ، لكن تخلص المسلمون والحمد لله فلم تضعفهم هذه الهزة واضطلع تفكيرهم لا بايقاف الحملات الصليبية فحسب بل استطاعوا دحرها وتطهير القدس وغيرها منها ، فالتفكير الاسلامى صنع العجائب فى دحر هؤلاء المغيرين وذلك أن الرأى العام لم يخمد ولم يخمل فراجع الموقف فاستبان له أنه لا يدرك ثاره ولا يقصى الجائر الا اذا تخلص من التحلل ، فحين التفت المسلمون الى دينهم التقى دين التضحية استرجعوا فلسطين وعاد الاسلام من جديد اليها ، ولعل مثل ذلك اليوم ليس منا ببعيد ، ويرجع اتخاذ هذا الموقف فى العود الى الوطن المسلوب ، الى أن التفكير الاسلامى لا يزال فى حيويته وجديته ، فعلاوة على ما ظهر من ابتكار فى اسلوب الحرب وايجاد وسائل للمقاومة جديدة **كان هناك تفكير اسلامى جذرى فى امرين اساسين :**

اولاهما : اعادة الروح الجديدة الاسلامية ، لكنها اصطبغت فيما بعد بالتصوف فكانت فى مشربها غير صافية ، والشعر من أبرز مظاهرها ، فبعد شعراء المجون ظهر ابن الفارض وأضرابه ، وهذه الروح لو أخذت الصبغة الاسلامية الصرفة لكان فى امكانها أن تأتى بنتيجة أكبر ، فالفكر الاسلامى قد استعاد منهجه الاسلامى ، وخلقه

الاسلامى ، ولكنه ويا للاسف تمحض عن مزج فأثر التصوف على الفكر والأخلاق .

ثان الامرين : تفتح الفكر الاسلامى فى هضم القوميات وصهرها فى البوتقة الاسلامية فابتلت العالم الاسلامى هذه الصدمة دون فرق وهى الحملات الصليبية ، ولم يعتبرها تخص الخلافة العباسية وحدها ، أو أنها ملقاة على العرب خاصة ، بل اعتبرها الفكر الاسلامى قضية المسلمين عامة من أجل ذلك اضطلعت بها دولة كردية وهى الدولة الايوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب المولود بتكريت من بلاد الكرد ، كانت هذه الحملة درسا عرف بها الغرب الذى يناوىء الشرق بأن القضاء على الدول الشرقية ليس ممكنا كما كان فى عهد الدولة الرومانية لان الاسلام وقف حاجزا للغرب المتسلط على الشرق ، اذا باءت هذه الحملات بالفشل رغم كثرتها وايقاد الحمية الدينية ، لكن بجانب هذه الحملات حملات أخرى نجحت مع امتداد نفس وهى حملات الاندلس ، التى هيأ لها أسباب النجاح المسلمون أنفسهم ، اذ انقسمت دولة الاندلس الى ملوك يعبر عنهم بملوك «الطوائف» ، فتساقطت بلاد الاندلس بلادا بعد أخرى الى أن كانت النكبة الكبرى بجلاء المسلمين عن شبه تلك الجزيرة .

مما يزهدنى فى ارض اندلس * القاب معتصم فيها ومعتضد
القاب سلطنة فى غير مملكة * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

ونسأل الله أن لا نكون على طرف من ذلك ، ولا بد ها هنا من وقفة وهى أن هذه الحملات لماذا نجحت فى الاندلس حتى انقرضت الدولة الاسلامية من الاندلس ولم يبق لها ذكر فى تلك الربوع ، فما هو السر يا ترى ؟ المسمون هم المسلمون ، فى عدم قدرة هؤلاء على رد هذه الحملات لأسباب كثيرة ، وانما فى طليعتها أن نحصر السر فى عدم قدرة المسلمين فى شبه جزيرة الاندلس هو ان تفكيرهم أدى بهم الى اليأس ، ، ربما يقال أن هذا اليأس تطرق اليهم بعد طول تصاول مع الاسبان ، لا ، ليس الامر كذلك ، بل تطرق اليأس الى الاندلسيين منذ الجولة الاولى فانهم منذ سقوط طليطلة كانوا فى حال يأس ، حتى انهم منذ تلك الحقبة سنة 478 وفكرة الرحيل من الاندلس تخامرهم ، ويعبر عن هذا المعنى ما قاله الشاعر الاندلسى عبد الله بن فرج المشهور بابن العسال :

يا اهل اندلس حثوا مطيكمو * فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وارى * ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين علو لا يفارقنا * كيف الحياة مع الحيات في سفط

فنفسية الاندلسيين غير نفسية المسلمين فى الشرق،فالمسلمون بالشرق كانو متطلعين لجولة أخرى ، تعفى آثار ذلك الواقع وتسترجع القدس الشريف كما قال ابن الوردى :

وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات ايقضت كل نائم
فايها بنى الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحق الذرى بالمناسم
واخوانكم فى الشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى او بطون القشاعم
تسومونهم الروم الهوان وأنتـم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

فشتان بين حث المطيى للرحيل ، وبين تنبيه المسلمين بأن وراءهم وقائع تلحق الذرى بالمناسم ، فحث المطى قد تحقق ولـو بعد مئات السنين ، وكذلك لم يمض قرن بالنسبة للشرق حتى خاض المسلمون وقائع أدت بالصليبيين للرحيل ، ومن فضل اللـه أن كـان الشرق آنذاك سليما فى تفكيره متحفزا رغم ما أصابه من انحلال فى الاخلاق والتفكير ، فلو ان الحملات الصليبية نجحت فى الشـرق والغرب لكانت الكارثة العظمى لا قدر الله ، وزرع اليأس هو مـا نقاسيه اليوم ، فاننا لا نواجه اسرائيل فى الشرق فحسب ، بل نواجه من أقصى الغرب من أمريكا حملة أخرى تعزز بها امداداتها ، تريد زرع اليأس مثل الاندلس من ذلك ما طلعت به بعض الصحف الامريكية وهى صحيفة «**نيويورك تايمز» من ان اسرائيل تملك امكانية انتاج القنبلة الذرية ، وانها تستطيع ذلك فى سنة أو تسعة أشهر** ، لكن لا ينبغى أن ناخذ هذا الخبر على هذا الوجه فحسب ، وهو زرع اليأس والقنوط ، بل يجب أن نأخذه من جهة أخرى وهو انه الحق اليقين ولا نقابله آيسين بل يكون ذلك من بواعث حفز الهمم فى الامه العربية لتلتحق بالركب وتترك الفراغات حتى تنتج كذلك قنبلتها وحتى تقابل الفعل بالفعل والبادىء اظلم ونسال الله سبحانه أن يكون ذلك عندنا قريبا .

لكن الحيوية الفكرية فى المسلمين أخذت تضعف شيئا فشيئا كلما ابتعد المسلمون عن أن يكون لهم رأى عام مفكر فجاءت هـزة

فلو أن عصر الامبراطورية الاسبانية تمكن من شمال افريقيا لالحقها بالاندلس ، وكان جلاء المسلمين منها ، وهذا الفكر الاسلامى الجديد بسبب انحصار مهمته فى الفتوح لم يستطع أن ينهض بالامم المنطوية تحت لوائه ، لكن استطاع ان يحافظ عليها بلا أفكار نيرة وأخلاق عالية ، لم ينهض التفكير الاسلامى رغم هذه الهزات بل ازداد تدليا حتى جاء الاستعمار والداء منشأه ان السواد من المحكومين يعيشون وقد سلبهم الحكم تفكيرهم وارباب السلطان والنفوذ لا يهمهم الا اشباع رغبة السلطان المطلق احيانا ، وأخرى اشباعهم شهواتهم الاخرى ، ثم جاء الاستعمار فعم الوطن ولم يترك شبرا لم يدخله اما مباشرة واما التواء ، وتقلب بنا تقلبات عدة الى أن جاءت الانتفاضة العامة المنادية بالاستقلال ، فهزة الاستعمار أحدثت الاستقلال .
بعد ان بيننا تسلسل الداء الفكرى وكيف أن الهزات لم تحرك الا قليلا أحيانا وان كانت قد حركت فى العصور الذهبية او لم تحدث شيئا الى أن جاءت هزت الاستعمار فتحرك العالم الاسلامى بأسره وكـــان الظفر لها ، فها نحن فى فجر الاستقلال فهل تحدث فينا هذه الهزة حركة فكرية جديدة تهزنا أن نعمل للنهوض بالعالم الاسلامى والخروج به مما كان عليه ، فها هى دفة التسيير بأيدينا ، ونستطيـــع أن نصنع شيئا ، وان كان المغتصب لم يتركنا نبنى بناءنا المراد ،قد سلط علينا من هم اشد من المستعمرين وهم الصهاينة المتعطشون للدماء والمتكالبون على التخريب والحالمون بملك اسرائيل على حساب الامة العربية ، فهل اننا اليوم بعد ادراكنا لخطورة الموقف سنكون أقوياء قد اعددنا للجولة القادمة عدتها وتدرعنا لها وتكوننا التكوين الصحيح فكريا وأخلاقيا ، ان الواقع أبان لنا اننا لسنا على أهبة صحيحة ، فتلك النكبة أبانت لنا اننا مغرورون بأنفسنا وندعى أكثر مما عندنا ، فبعث ذلك العدو على أن يقضى علينا بين نوبة عين وانتباهتها ،مما يحز فى نفوسنا كل لحظة ، لكن لنا الامل بحول الله واعتمادا على استعدادنا الكامل أن لا تعود تلك النكبة ان شاء اللـه .

فلا بد من انتشال ولا بد من اصلاح امرين هما عمادا النهضة الاسلامية : **التفكير الاخلاق** ، وهذا التفكير الذى نريده يتحتم أن يعتمد على القوة ، لهذا منذ أزيد من قرن فكر بعض الرجال المفكرين فى عصر تكالب الاستعمار الى أن يبعثوا التفكير الاسلامى الى ادراك

معنى القوة التى عليها العالم الغربى ، فبذلوا جهدا مشكورا فى انهاض الفكر الاسلامى بالتعليم والحد من عبث العابثين ، ونذكر لذلك مثلا وهو ما حدث على يد رجل مصلح خير الدين باشا فانه كان من العاملين لنهضة البلاد الاسلامية وظهر فضله فى وزارته التى لم تعمر الا قليلا اذدامت أربع سنوات من سنة 1290 الى سنة 1294، فانه اراد ان ينهض بالبلاد التونسية نهضة مثالية فكرية بالتعليم الذى قعد اسسه سواء كان تعليما للعلوم الاسلامية باصلاح نظام التعليم الزيتــونى ، او كان تعليما حديثا بالمدرسة الصادقية وراى ان فى ذلك عملا عظيما لاثارة التفكير الاسلامى وارشاده الى الطرق الصحيحة ، كان هذا العمل فى تاليفه كتاب «اقوم المسالك فى معرفة الممالك» وهو كتاب يتبين المقصود منه مما ذكره فى خطبة الكتاب اذ يقول :

«فمن لاحظ هذين الاعتبارين الذين لا تبقى المشاهدة فى صحتهما ادنى ريب».

يقصد بهذا كون ان الدنيا صارت متحدة والمطالبة بنفع أبنــاء الجنس ، كان بمقتضى ديانته من الدارين أن الشريعة الاسلامية كافلة بمصالح الدارين ، ضرورة ان التنظيم الدنيوى اساس متين لاستقامة نظام الدين ، من شهد هذا يسوؤه أن يرى بعض علماء الاسلام الموكول لأمانتهم مراعات أحوال الوقت فى تنزيل الاحكام معرضين عــن استكشاف الحوادث الداخلية وأذهانهم عن معرفة الخارجية خاليــة ولا يخفى أن ذلك من أعظم العوائق عن معرفة ما يجب على الوجه اللائق افيحسن من اساءة الامة الجهل بامراضها أو صرف الهمة الى اقتناء جواهر العلوم مجردة عن أعراضها ، كما أنه يسوؤنا الجهل بذلك من بعض رجال السياسة ، والتجاهل من بعضهم فى اطلاق الرئاســة ، فلذلك هجس ببالى ما استذكيت لاجله ذو بالى من أنى لو جمعت ما استنتجته منذ سنين باعمال الفكر والروية مما شاهدته أثناء اسفارى للبلدان الاوروبية ان كتاب «أقوم المسالك» ليس المقصود منــه حكاية ما فى المغرب وانما المقصود منه فتح عيون الامة الاسلامية على قوة الغرب ولهذا نرى الكتاب متركزا على الناحية الاقتصادية والناحية الحربية واذا نظرنا الى معنى القوة لنجد أنها تخرج عــن هذين مع العلم كما يتضح ذلك من فحواه وهذا خلافا لما ذهب اليــه الاستاذ الجليل مالك بن نبى ، ثم انه فى مقدمته قد بسط البسط

الكافى لتحرر الحكم ، اتضح السبب وظهر العامل المؤدى الى ضعف التفكير والى التدلى الاخلاقى ، اتضح أن هذا من فقدان فكر الرأى العام واختفائه من الميدان ، فهل اليوم من سبيل الى بعث الفكر الاسلامى بأن يكون فكـــرا فى مقـدوره أن يجابه الحيـــاة الحـــاضـــرة ويقضى على الرواسب المتخلفة عن عصور الانحطاط عصر الاستعمار وما تقدمه من عصور مظلمة ، وهل من سبيل الى تغيير الاخلاق فى المسلمين فانها أخلاق فى أوساط مختلفة لا نرتضى أن يبقى عليها المسلم لانها أخلاق لا تعين على التفكير بل تقضى عليه ، من ذلك مـــا يعامل به بعضنا بعضا ، فانه ينحط به الفكر بذلك الخلق لارضاء شخص مما فيه تزيين للباطل ، حتى أخذت الحياة طابعا خاصا وهو طابع حياة مبنية على غير الدعائم الحقة بل على رغبة شخصية تسخـــر لها كل القوى ، فلا تعمل الا فى فلكها ، وبذلك تفقد المواهب وتصبح آلات عاملة لتلك الرغبة ، وهذا له تأثيره فى الامـــم الناهضـــة ، فى حاضرها وماضيها القريب ، فالامة الالمانية فقدت السياسة فى عصر بصمارك لانه لم يترك لها مجالا للعمل ، ولذلك رغم التقدم الصناعى لم تستطع المانيا أن تصنع شيئا أمام أساطين السياسة ودهاتها فلذلك وجدت ألمانيا نفسها فى الحرب العالمية الاولى وحدها وليس معها الا الدولة العلية المهيضة الجناح والنمسا الامبراطورية المفككة من الدول الكبيرة ، بينما كانت كفة الجلفاء راجحة بالامم الى أن دخل من رجح الكفة وأمال الميزان ، كان هذا التأثير فى أمة من أقوى الامم الاوروبية فما بالك بالامم الناهضة من كبوة ثم قامت ثم امتدت ولولا حيوية الاسلام لاضمحلت فان التأثير المفقـد للمـــواهب عليهــــا أشد ، فلذلك قلت المواهب ونزرت ، ثم ان تأثيره كان أعم لانه حين أثر فى الغرب كان فى ناحية الافساح المجال فى نواح اخرى ، فالمانيا سواء فى عصر الامبراطورية او فى عصر الهتليرية نهضتها الصناعية واختراعاتها نابهة، فلم تغلب الا باختزال مدة الحرب، فلو امتدت زمنا لاستطـــاعت المانيا أن تربـــح الحرب بقنبلتهـــا الذريـــة وصواريخها المجهولة آنذاك ، لكن أين منا تلك النهضة الصناعية ، فعسى الايام تبعث الهمم للوصول الى تلك الغايات ونبنى أكثر مما بنوا ونفعل أكثر مما فعلوا فالافساح للفكر أمر ضرورى للمسلمين وقد أدرك المسلمون ذلك عيانا ، لكنهم سلكوا فى الخروج من هذا مسلكا هو الخطأ بعينيه،

وذلك بالحملة على الاحكام الشرعية وبالاخص الاحوال الشخصية منها ونفذوا ذلك فى شعارات مختلفة كان ذلك هو التحرير لفكر المسلمين، وبجانب ذلك لا تجد الافكار مجالات تعمل فيهـا اذ القيود كثيرة والعقبات جمة ، فالافساح للمواهب ليست له مجالات الا قدر معلوم ومع آثار التكوين الماضى لم نحقق شيئا مذكورًا فى الميادين التى تجرى فيها الامم للسبق والفوز بالرهان ، لكن من المحقق لا مـن المتوقع أن الا فساح الفكرى سيعبث به العابثون ويتصرفون فيـه تصرفا مرديا ، والشواهد من الواقع تؤيد هذا فما المختار ياترى ؟ وماذا نصنع والتضييق سجن للفكر ، والحرية افساح للعابثين ، الامر ليس بالسهل ويتطلب روية واخلاصا ، وهنا يكون الدور الاسلامى بنشر حرية الفكر الاسلامى التى ليس كالحـرية التى يفسح فيها لاخلاق الدعارة والفساد، بل الحرية الفكرية الاسلامية تحتضن الاخلاق وتعاف الدعارة وتبنى على أسس بناءة للفردوالمجتمع وتقضى على الفوضى وهنا يتحتم أن نقوم بنشر الروح الاسلامية وتفهيمها للناس وتبيين دورها فى الفكر وما شرط الاسلام للحفاظ على عدم تلويث الحريـة الحرية الفكرية ، وهذا واجب المؤسسات الاسلامية حتى تتكـــون الروابط بين طبقات المسلمين على أسس الدين الصحيح ، ويجب أن تسخر لذلك أكثر القوى وبالاخص الصحافة ليمكننا أن نخرج برأى عام عامل فى شتى الميادين يقدر المواقف ويتوزع فيه المسؤوليات ليضطلع كل صنف بما هو من اختصاصه دون توثب من البعض على البعض، وهذه المدنية الاسلامية ليست مجردنظريات فهى حبر على ورق بل هى مدنية قد تحققت فى العصر النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وفى عصر الخلفاء الراشدين وما اتصل بذلك مـن عصور ذهبية وحتى فى العصور الغير البعيدة حين تأسست بعض الدول الاسلامية ويطلع بالامر فيها ذوى الكفاءة ، فانهم وان ضيقـوا فى بعض النواحى فقد أفسحوا فى أخرى وشجعوا على النشاط الفكرى فالامر يتطلب وقتا ومجهودا ، ومن المفروض أن نخرج ونعمل مـن الآن فى خطواته الاولى وعلى الاساتذة علماء الاسلام أن يضحوا برفاهيتهم بل بما هو من الضرورات ويقوموا بحملة للتفكير الاسلامى واشادة مدنية اسلامية فاضلة، ويضعوا الخطط البناءة وتتوالى اجتماعاتهم وتتابع توصلا لهذه الغاية ، فان لم تبعثنا هذه الهزة يتسلط اسرائيل فمتى

نتبعث لما هو مطلوب منا بعد الاستقلال ، لبعث حركة فكرية واخلاقية تتكون فيها البلاد الاسلامية أمما مستقلة بحق ، فاننا اذا انبتنا الاسلام على وجهه الصحيح كان بامكانه أن يوجد شعوبا لهم رجالهم فى أخلاقهم وافكارهم مما ينسيهم حظوظهم النفسية ، فلا يزينون أهواءهم ورغباتهم بمقومات وشعارات انسانية ، بل يكون هدفهم الاسمى هذا العالم الاسلامى المنكوب اليوم باسرائيل ، وليس وجود الذين يذوبون فى تركين الاسلام بالامر العزيز ، فهؤلاء الصهاينة سخروا مواهبهم ومعارفهم لخدمة القضية الصهيونية ويكفى ما كنا فيه حتى وصلنا الى هذا الحال من الضعف،فقد كان المسلمون فى الشرق فى الحرب العالمية الاولى مقسمين على أنفسهم بين عرب وترك ، وتتقد الشرارة الاولى وينفصل ما بين العرب والترك ، وتنبعث القطيعة ، اذ الصهاينة يبذلون كل ما فى وسعهم للانقضاض على الفريسة وينفتح لهم الباب بالوعد المشؤوم .

ففلسطين لم تسقط بهذه النكبات بل سقطت من قبل منذ تلك الحقبة ، فحين تفرق المسلمون وطعنوا أنفسهم بأنفسهم ومكنوا الانجليز من أرضهم مكنوا عدوهم منهم ، مكن الله منا . ويكفى أن يكون هذا درسا لرجالنا ، حتى نقر فى أنفسنا الحرية الاسلامية التى تنتج أفكارا قادحة تعمل فى شتى الميادين ، فانه لا يمكن أن تنقدح الافكار وهى مغلولة مشلولة منقادة بزمام كانقياد الحيوان ، ومما عرفه لنا التاريخ ان الهزيمة انما تكون اذا كان المدافعون غير مقتنعين بوضعهم لعدم جولان أفكارهم فهم فى موقف حيرة يبعث فى نفوسهم لبلبلة فتخمد أفكارهم وتجمد نفوسهم ، وهذا ما رأيناه فى صدر الاسلام حيث لم تثبت أمم كثيرة أمام تفتح الدعوة للتقابل بين الحرية والاغلال ، فالغل لا بد أن يضمحل ، لم أتصور أن من يحمل العقيدة الاسلامية بحق تسيغ له نفسه أن يخالف ما ساس به النبى (ص) المسلمين ، فانه والوحى يرافقه ويسدده ما كان ليستبد برأى على المسلمين ، ففى مواطن الخطر التى تداس فيها الحريات كان الاسلام يفتح صدره للفكر ، ونذكر مثلا من ذلك فى غزوة بدر والعدو متفوق لم يخض صلوات الله عليه المعركة الا بعد أن تبادل معهم الراى فى احدى الطائفتين ، وحين حولهم عن رأيهم جعلهم

أنفسهم يتحولون ، وحين خاطبهم القرآن وهو كتاب الله المنزل خاطبهم بمثل هذا الخطاب المنبىء على احترام الرأى « **واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكـون لكم ويريد الله ان يحق الحـق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** » •

وسيرته (ص) مليئة بذلك ناطقة بأن المجموعة الاسلامية لها وزنها فى تكييف الآراء فى الامور الدقيقة ، ونشير هنا الى سر من حكمة الاسلام وهو أن القرآن أبرز تبادل الرأى فى هذا الموطن الحرج ليبين ضرورة الحرية فى الرأيى ، فاذا كان تبادل الرأيى فى أحرج الاوقات فما بالك بحال الساعة ، ومن أبرز خصائص الرسالة انها جـاءت لتحطيم ما أثقل كواهل الناس وغلهم بأغلال ، فأصبحوا فى أسوأ حال ليس لهم وزن ولا قيمة فى سير الحياة ،ويشير الى هذا ما جاء فى سورة الاعراف « **الذين يتبعون الرسول النـبى الامى الذى يجدونـه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عـن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم** » • فالرسول (ص) كما يضع عمن سبقنا ثقل التكاليف السابقة يضع عنهم ما قيدوا به فى حياتهم بغير ارادتهم فيطلق لهم من كبتهم ، وهكذا كانت سيرة الراشدين رضوان الله عليهم فى المواطن الحساسة وغيرها ، فقد كانو يتبادلون الرأيى فلا يبتون فى القضايا الا بعد الشورى ، فكان الرأى فى عهدهم زاهرا طريفا ، ويكفى تدليلا على احترام الرأى ان القرآن ذكر ان الله سبحانه وتعالى يقول : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البـر والبحـر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثـير ممن خلقنـا تفضيـلا** » فالمكرم من الانسان ما كرمه الله به ، فاذا لم نكرم ما كرم الله به ، فاذا لم نكرم ما كرم الله به المرء كنا قد خالفنا سنة الكون وأعرضنا عن الطبيعة التى خلق الانسان بها ، واذا كان المجتمع منصاعا للدين فانه يهتدى للحرية الفكرية ويمنحها أهلها فان الفكر بعد ذلك سيعمل جاهدا لانه يرى أن الوسيلة المـوصلة الى رفـع المستوى انمـا هى نتيجة فكرية وبذلك تتبارى الافكار فيما تغـنم منه الامة مغانـم جمة يكشف عنها المستقبل القريب وما الصبح عنا ببعـيد •

ان الحرية الفكرية الرائجة اليوم هى الحريـة المستوردة تلـك

الحرية المنطوية على الخبائث التى تبيح للفتيان والفتيات اطـــلاق العنان فى ارضاء الشهوات ، وهو ما نرى بعضه يمثلـه فى أرضنـا السائحون والسائحات من المتخنثين والمبتذلات جميع الرذائل ومـا هم السائحون وما هم الذين قال الله فيهم : « **الحامدون السـائحون**» ولا فى السائحات الذين قال الله فيهم : «**عابدات سائحات**» ، اننا نريد الحرية الاسلامية النقية البناءة التى أشادت هذا الدين ،وأبقته راسخا فى الارض ثابت الاوتاد أين منه ارم ذات العماد ، نريدها الحرية الاسلامية الباعثة فى النفوس روح الحماس المتقد ، نريدها الحرية الاسلامية التى قاد بها محمد (ص) الامة العربية المخرج للناس مـن الظلمات الى النور ، ومن العسر والاغلال الى فسيح الجمال، الى الحياة السالمة ، والاوضاع الباعثة على التفكير الممتاز،التفكير الذى لايعرف الانتماء ولا الرجوع الذى لا يقف فى وجهه شيء الا تخطاه وحطمه ، التفكير الذى لا يعرف **الا الثبات على المبدأ كما قال النـبى (ص) : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتـرك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»** ، هذا التفكير الذى نبغيه لناشئتنا ولانفسنا فلو وضعوا الشمس فى أيماننا والقمر فى أيسارنا لنتراجع لم نتراجع ، ولو ملكنا الافلاك هذا التفكير الـذى نبغيه للناشئة الذى اذا اعترضتها العقبات وقفت وجهها الســدود تغلبت بالفكر السديد والرأى الرشيد واتخاذ الحلول الفعالةعنـد الابان مفطورة على أخلاق العزيمة منقاة من الخور والهلع الذى لاتجزع وان تأليت الدنيا عليها فلها من عزيمتها الحديدية ما يذلل لهـا الصعاب ، ويمشى بها قدما بين الاشواك ، اذا كنا على هذا التفكير وبهذه الاخلاق لابد ولا محالة أن نقضى على العقبات ونجتاز السدود ونخرق الفولاذ توصلا وبلوغا لتحرير فلسطين مثوى النبيين،ومعراج الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وموطىء عمر بن الخطاب وفتح صلاح الدين ، ان هذا الداء الناخر فى قلب العروبة لا نتركه طويلا ان شاء الله ولا نقول له دعة ووداعا ولكن الى اللقاء .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

مشكلـــة المسلمـــين اليـــــوم

المهتدى محمد أسد
مفكر مسلم نمساوى
باكستانى الجنسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا اله الا هو،والصلاة والسلام على من لا نبى بعده،
السلام عليكم أيها الاخوة والاخوات :

فبعد ما طلب منى القاء محاضرة ترددت فى نفسى مدة طويلـة لما أرى من نواقص ، ولذلك ما أريد أن أطيل عليكم كلمتى اليوم ، خصوصا بعد ان ألقى فضلاء المسلمين كلماتهم التى ربما بينوا فيها مشكلات الاسلام احسن مما أستطيع أن أبينه لكم ۰ ولكن أريد أن أتوجه اليكم ببيان حقائق مرت علينا ، أعنى : الفرار من الدين الذى نراه اليوم فى الشباب المسلم ، فى كل الاقطار والنفور من الاسلام ۰ وسبب ذلك كما أراه هو ان معظم الشباب المسلم يرى نفسه محبوسا فى جمود فكرى ويظن أن الشريعة الاسلامية تمنعه من الحصول على الحرية الفكرية ، والتقدم الاجتماعى والاقتصادى الذى يستحقه ۰

هذه الحقائق كما قلت لكم ، حقائق مرة ۰ ويجب ألا نخفيها عن أنفسنا ، اذ لا يمكن أن نصلح حالتنا اذا لم نر الاحـــوال كما هى ، وليس كما نحب أن تكون ۰ لقد سمعنا من اخواننا الاساتذة الذين قدمونى هنا بأن الاسلام هو دين الكمال المطلق لا مثيل له فى العالم كله ۰ ولكن نعترف ونعرف أن الاسلام ليس له تطبيق واقعى حيى فى المجتمعات الاسلامية اليوم وفى تاريخ المسلمين من عهد بعيد ۰

فلماذا شبابنا يتركون هذا الدين ويلتفتون الى حضارات أجنبية ، تلك الحضارا تالتى بينت افلاسها فى الحروب وفى الازمات التى لم ير العـالم لها مثيلا ۰ لكى نفهم حقيقة حالتنا يجب أن ننظـــر الى

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م۰

بعض مسائل أصولية . أما كلكم سمعتم وقرأتم فى مدارسكم ومعاهدكم أن المجتمعات فى العالم كله قائمة ومكونة على أساس ميثاق اجتماعى . ولكن العلم اليوم بين لنا أن هذا الميثاق الاجتماعى ما هو الا خرافة من الخرافات التى افتراها فيما أضن جان جاك روسو وقرروها من بعده وكرروها تكرارا الى يومنا هذا .

وفى الحقيقة ما تكون أيى مجتمع فى العالم على أساس ميثاق اجتماعى بل تكونت هذه المجتمعات على أساس ارتفاع القوى على الضعيف . كان أصحاب القبائل الاقويا. منهم يستولون على الضعفاء . وتكونت تدريجيا حكومة قبلية فى الاول ، بعد ذلك يثور الضعفاء على الحكام ، واذا حصل لهم التوفيق تقلبت الاحوال وصار الضعفا. حكاما والحكام ضعفاء وتكررت هذه المسالة فى تاريخ العالم . ولكنى قد اشرت ضمنا الى استثنا. :أنه يوجد فى تاريخ العالم مجتمع كان قائما ومتفقا على ميثاق اجتماعى ، وهذا المجتمع هو مجتمع الامة الاسلامية .

كانت العرب فى دور من الادوار التاريخية كما تعرفون تعيش فى قبائل شتى ، ليست لهم دولة الا فى ازمنة غابرة قد نسوها وزالت من شعورهم . وفى يوم من الايام قام فى وسطهم رجل وقال : انى بشر ليس عندى معرفة الغيب،ولا سلطة على السماوات ولكن اختارنى الله خالق الكون رسولا الى كافة الناس . وامرنى أن ادعو الناس الى اتباع القوانين والشرائع التى أنزلها الله من السما. على قلبى ولسانى، فمن اختار اتباع الله فليتبعنى . هذه خلاصة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كانت فى يده قوة ولا سلطة مادية ، والناس الذين انضموا اليه ما انضموا تحت اى خطر او ضغط ، بل بحرية نيتهم واخلاصهم لما فهموا منه ان هذه الدعوة صادقة . **وهذا هو الميثاق الاجتماعى الوحيد الذى رايناه فى تاريخ الانسان ، والذى هو اليوم فى خطر الفناء .**

لقد راينا أن كثيرا من الدول الاسلامية المستعمرة أصبحت مستقلة ، وربما يظن بعض الناس أن فى هذا الاستقلال اشارة الى مستقبل الاسلام ولكنه ليس كذلك . راينا فى كثير من هذه الدول المستقلة ان الناس يفرون من الاسلام يبدلون الاحكام الشرعية

باحكام غير اسلامية أخذوها من الاجانب ويظنون انها أفضل وأرقى من الشرائع الاسلامية ، وكل هذا مع الاعتراف بكمال الاسلام كذلك ليس عندنا أى احد ـ ذكر او انثى ـ ينكر او يستطيع أن ينكر ان الاسلام أكمل عقيدة وأكمل فكرة ايديولوجية ظهرت فى تاريخ الانسان، وأكثر من هذا ان الاسلام حقق أول مجتمع ايديولوجى فى العالم. فلماذا اذن يفر الشباب ويتركون هذا الكمال بالنواقص التى يأخذونها من الاجانب ؟

أرى أن الجواب يكمن فى نواقصنا لفهم التشريع الاسلامى ، ان الشريعة الاسلامية هى دستور حياة الامة الاسلامية ، فكل شىء فى المجتمع الاسلامى مؤسس على الشريعة العادلة التى يتساوى فيها كل الناس ، اذ ليس لنا فخر بالعنصر «لا فضل لعربى على اعجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى» وهذا ما لا وجود له فى مجتمعات غيرنا فكل حياتنا كانت من ابتدائها مؤسسة على الشريعة ، وبالشرط ان الشريعة مفتوحة فاتحة لفهم كل فرد من الافراد المسلمين ، ففيها قوة دافعة لحياة الاسلام ، واذا غلقت أبواب فهم الشريعة عند المسلمين جفت هذه العناصر ونقصت هذه القوى الدافعة وأصبح المسلمون جامدين والقوى التى كانت عندهم مبدعة أصبحت قوى تقليدية .

هل تستطيع أن تقول ان معظم المسلمين يفهمون الشريعة اليوم ؟ لا ، بل أصبحت الشريعة والفقه الذى يدلنا اليها، مجالا لرجال متخصصين وليسوا هم الفئة الفاقهة المثقفة اليوم ، لفهم كل فرد من أفراد المسلمين . دعنا ننظر فى المسألة من الاساس نعيد كل الفقه نعيد كل الفقه والتفقه فى الدين الى نصوص القرآن والسنة، ولقد أجمع علماء المسلمين وعلماء اللغة الاسلامية على أن ـ كما عبر لسان العرب ـ نصوص القرآن ونصوص السنة هو ما ظل ظاهر لفظهما ينطوى على الاحكام، ولكن من المعلوم أن الاحكام التي استخرجها الفقهاء المسلمون لا تقوم كلها على النصوص فحسب ، أعنى الاوامر والنواهى المنصوص عليها فى القرآن والسنة ، بل قسطا كبيرا من الاحكام الفقهية كان من ثمرات التفكير والاجتهاد الخاص لكل واحد من المجتهدين ، وقد وصل اليها بوسائل الاستنباط المختلفة ، أما كل الاستنباط فيؤثر بطبيعة الحال فى الذهنية الخاصة للمستنبط ، والبيئة العقلية والثقافية

والاجتماعية التى سادت عصره ، ولذلك لا يمكن أن تكـون تلـك الاستنباطات ونتائج اجتهاد الاشخاص ملزمة على كل المسلمين فى كل عصر ، وذلك عكس الاحكام المنصوصة فى القرآن والسنة ، تلك الاحكام الخالدة الثابتة التى تلزم كل مسلم فى كل العصور والازمنة ، وكان تحديد الاستنباط الذاتى مفهوما عند أكابر فقهائنا فى الازمان السابقة ، وكلكم تعرفون ان الامام أبا حنيفة مثلا والامام الشافعى قالا : «**اذا وجدتم شيئا فى كلامى يعارض سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتركوه ، وأما ما يوافق الحديث والسنة فهو مذهبى**» ، هذا القول منقول عن الامام أبى حنيفة وعن الامام الشافعى أيضا ، ومن المعلوم ان الامام مالكا قدس الله روحه رفض وضع كتابه «الموطأ» كقانون للدولة العباسية على أساس هذا الاسراف فى تحديد الاستنباط الذاتى ، وما استهدف أكابر الفقهاء باجتهادهم أكثر من أن يتيسر تطبيق مبادىء شرعية منصوصة فى القرآن والسنة على مساعى وأحوال قانونية خاصة فى أزمانهم ، ولكن بمرور الزمن اكتسب اجتهادهم فى نظر معظم أتباعهم درجة مقدسة ، حتى أصبحت نتائج استنباطهم واجتهادهم فى نظر كثير من المسلمين جزءا لا يتجزأ من الشريعة نفسها واكتفى هؤلاء المتبعين بتقليد أعمى لفقه علمائنا المتقدمين ، وقد ذكرنا آنفا أن كل الاستنباطات والاجتهاد الفقهى متأثر بالاهواء الثقافية والاجتماعية التى سادت فى عصر المستنبط ولما كانت تلك الاحوال تختلف كثيرا عن الاحوال التى نعيش فيها فى عصرنا هذا ، باتت هذه الاستنباطات الفقهية المذكورة تختلف بطبيعة الحال عن الاستنباطات التى نستطيع الوصول اليها فى عصرنا الحاضر، وان هذا من أهم الاسباب فى تردد كثير من شبابنا فى استخدام الاحكام الشرعية فى تفكيره العلمى والاجتماعى ، وقد ذكرنا ان الشريعة الاسلامية هى الدستور الخالد لحياة الامة الاسلامية وانه لا وجود للمجتمع الاسلامى بدون ان تطبق أحكام الشريعة على تكوينه الثقافى والاقتصادى . **شىء ثان** أنه لا يمكن لنا من هذا التفكير ما نستطيع أن نطبق به هذه الاحكام الا عن طريق المعرفة العامة المباشرة لتلك الاحكام من قبل كل مسلم مثقف ، وكيف نحل هذه المشكلة ؟ فاننا نجد جوابا لمشكلاتنا بوضوح فى القرآن المجيد «**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم**» فى تفسير هذه الآية الكريمة ذكر **السيد رشيد رضا** صاحب تفسير المنار

ما يلي : «**العبرة في هذه الآية أن كثيرا من الفقهاء وصلوا بأقيستهم دائرة التقاليد وانتهوا بها الى العسر والحرج ، المرفوع بالنص القاطع فأفضى ذلك الى ترك كثير من المسلمين وحكوماتهم للشريعة بجملتها وفتح لهم أبواب أخرى انتفعوا بها وأثرت عليهم**» هذا ما قاله صاحب تفسير المنار .

ولقد أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الآية المذكورة بتمامها في حديث شريف «ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه» وفي تحليل لهذا الحديث قال الامام الذى يمكن اعتباره بحق من أعظم فقهاء العالم الاسلامى أعنى : **الامام ابن حزم الاندلسى** قال في **مقدمة كتابه الجليل (المحلى) لقد جمع هذا الحديث جميع أحكام الدين أولها عن آخرها ففيه ما سكت عنه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يأمر به ولا نهى عنه فهو مباح وليس حراما ولا فرضا ، وان ما أمر به فهو فرض وما نهى عنه فهو حرام ، وان ما أمرنا به فهو يلزمنا منه ما نستطيع فقط .**

فبلا شك ان الامام ابن حزم اذ يذكر فيقول . ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ـ يعنى ـ به الشارع وليس فقط شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل القرآن وأحكام القرآن التى نزلت على قلبه ولسانه الكريم التى ألقاها لأصحابه . كل هذا يجب أن يفهم دائما أن معناه «الشارع» ويدل لفظ الشارع على الاحكام الواردة فى كتاب الله والاحكام التى وضعها الائمة والرسول الكريم، الذى لا ينطق عن الهوى وقال **الامام ابن حزم** أيضا : **ان الشريعة كلها اما فرض يأثم من تركه واما حرام يأثم من فعله ، وما هو مباح لا يأثم من فعله ولا من تركه وهذاالمباح ينقسم ثلاثة أقسام : اما مندوب اليه يأجر من فعله ولا يأثم من تركه ، واما مكروه يأجر من تركه ولا يأثم من فعله ، واما مطلق لا يأجر من تركه ولا من فعله ، ولا يأثم من تركه ومن فعله.** انتهى كلام ابن حزم .

أما الفائدة العظيمة من هذه النظرية التى تسمى «النظرية الظاهرية» لأنها تقوم على الظاهر من أحكام القرآن والسنة ، يمكن أن يصل بها كل مسلم الى فهم الشريعة عن طريق مباشر ، ولكن من

الممكن أن يقال اعتراضا لهذه النظرية «الظاهرية» ان الاوامر والنواهي الواضحة المنصوص عليها فى القرآن والسنة لا تكفى وحدها للاحاطة بكل ما استحدث من الاحوال القانونية التى تحتاج الامة الى حلولها ولهذا فان توضيح نصوص القرآن والسنة بواسطة الاستنباط والقياس أمر لا مفر منه ، ولا مجال لغير هذا ، وليس لأى أحد منا اعتراض على العمل الفقهى بالاستنباط والقياس وكل نوع آخر من الاجتهاد ٠ أما الذين ارتابوا فمن اللازم أن نعارضهم ، وصحيح أن نخالف تلك النتائج الفكرية الانسانية فى دائرة الشريعة الالهية نفسها ، أى لا نقبل اجتهاد أى شخص بدل أو دون سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، فحديثه يعتبر جزءا لا يتجزأ من الشريعة الخالدة التى هى الدستور العلمى للامة الاسلامية فى كل عصر وزمان٠

نعم الاوامر والنواهي المنصوص عليها فى القرآن والاحاديث النبوية لا تفى بكل ما يطرأ من المسائل القانونية بالتفصيل ، ولكن لم يكن ذلك نتيجة قصور من الشارع نعوذ بالله من ذلك ، بل على العكس من ذلك ٠ لكى لا تبقى الامة فى الجمود الفكرى والفقهى والاجتماعى فصوب كل الاعمال القانونية مع مقاصد الشريعة الخالدة نفسها الى اجتهاد المسلمين ، شرط ألا يعتبروا مسائل اجتهادهم أكثر من عمل اضافى للشريعة الحقيقية التى لا تغيير لها ولا تبديل ما دامت حياة الانسان فى هذه الارض ، لان هالة صفة لشريعة هى كونها منزلة من عند الله على قلب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وان أهم صفات كل التفكير الانسانى انه كله متأثر بالثقافة والبيئة التى يعيش فيها صاحبها ومن كيفية العلم الذى اختبره وأحاط عليه فى عصره واذا فهمنا هذا وفهمنا ان الشريعة الاسلامية الاصيلة لم يقصد لها أن تعتمد على الاجتهاد الاستنباطى أو القياس من قبل أحد ، فنقول نعم ان اجتهاد وقتنا واجتهاد من سبقنا من أكابر المفكرين المسلمين ، لا يمكن أن نعتبره جزءا من الشريعة نفسها التى وجدناها فى نصوص القرآن والسنة ، تلك الاوامر والنواهي قد عبر عنها الشارع بصيغة أحكام جازمة ، افعل هذا لا تفعل هذا ، هذا خير فأتوه هذا شر فدعوه ٠ تلك الاحكام الواضحة فى طبيعة نفسها لا يلمسها غموض ولا ابهام ٠ واذا اتفقنا على هذا التعبير للشريعة الاسلامية سيفتح لنا مجال واسع لتقنين أى قوانين اضافية تحتاج الامة الاسلامية اليها ، القوانين التى

نصوغها فى ظل القرآن والسنة وفى ظلال الشريعة الالهية ، قوانين نعالج بها مقتضياة العصر الخاصة طبعا بتغيير الظروف ، على العكس من الشريعة الالهية التى لا تتغير ولا تتبدل ·

اذا اخترنا هذا الطريق للتطوير الفقهى سنجد أن شبابنا يتوقفون من فرارهم من الدين الاسلامى مما يرون فيه من المجال الغير المحدود لتقدمهم السليم،والا كما قاله صاحب تفسير المنار من شدد شدّد الله عليه،وقد امتثل سلفنا للامر فلم يشددوا على أنفسهم،فكان الدين عندهم فطريا ساذجا حنفيا سمحا · ولكن من خلفهم فى الامر عفى الله عنهم استخرجوا أحكاما استنبطوها بالاجتهاد واكثروا منها حتى صار الدين حملا ثقيلا على الامة · هذا ويتردد ربما بعض أصحابنا اذا اخترنا هذه الطريقة الظاهرية ، فيشع بين الامة الاسلامية الخلاف فى الآراء ولا يجتمعون على طريقة واحدة ، ولكن يجب ألا ننسى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**اختلاف علماء أمتى رحمة**» بمعنى أنه لا يمكن أى تقدم بدون اختلاف فكرى ، ولا يمكن أى اختلاف فكرى اذا قلدنا أفكار أسلافنا · فأذن لنا طريقان : أن نمشى على طريق فكرى مشينا عليه حتى الآن ، ونبقى فى هذا الجمود الذى هو سبب تخلفنا وضعفنا يسلط علينا الاستعمار الاجنبى ، أو نختار طريق حرية الفكر ضمن الشريعة الاسلامية الخالدة ، وعلينا أن نعمل فى عصرنا هذا ونعرف أن المسؤولية علينا ثقيلة ، يعنى فى الحقيقة أننا فى مفترق الطرق · يجب أن نتفكر فى هذه الكلمة التى ألقاها **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**» · وكما قلت لكم مقدما لا أريد ان أطيل عليكم كلمتى اذ أعرف أن فى كلمتى هذه نواقص كثيرة ما كان عندى وقت لاستحضر محاضرة كما يجب ، ولكنى أردت أن أناقش هذه المشكلة المطروحة أمام علماء المسلمين ، وأريد الاختلاف الفكرى البناء بيننا ذلك الاختلاف الذى ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال : «**اختلاف علماء أمتى رحمة**» ·

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ·

2°) Religion (ou Foi) et Science : (par rapport à telle ou telle religion, ou confession, ou à la religion en tant que telle. Les Livres Saints — et tout particulièrement le Coran — et la science. Science et religion (ou foi) — n'importe quelle religion ou foi — sont-elles conciliables ? Est-il vrai que la religion n'est plus de notre siècle ? L'hypocrite exploitant la religion à des fins politiques, économiques ou sociales. L'athée par conviction, par ignorance ou par complexe, prétendant tous que la religion n'est plus de notre siècle, à tel point que des semi-analphabètes se vantent de ne plus croire... pour que l'on dise d'eux... La religion est-elle guide ou garde-fou pour l'individu et la société ou, tout au contraire, une drogue ? Ou ni l'un ni l'autre ? Qu'est-elle alors ?)

3°) Crise de la famille à travers le monde : (Où va la famille, de par des cris et appels que l'on entend et les comportements que l'on observe dans le monde ? Où veut-on en venir ? Quel sort lui voue-t-on ? Est-elle un système qui doit disparaître dans les meilleurs délais ? Ou à laisser mourir sa mort... plus ou moins rapide, en laissant faire... ou en l'y poussant un peu plus ? Ou, tout au contraire, faut-il tout faire pour la sauvegarder, voire la renforcer ? Et comment ?)

4°) Naissance du système universitaire dans le monde et son évolution : (Naissance de l'Université en tant que noyau du système universitaire dans le sens moderne. Rôle de la civilisation islamique dans cette naissance et dans ce développement ; diverses réformes universitaires dans le passé et surtout en cours dans le monde. Leur sens et efficacité, ou leur non-sens et négativité ; effets sur la jeunesse et la société).

5°) Les relations entre l'Algérie et le reste du monde avant 1962 : (A travers l'Histoire, ancienne et moderne, et tout particulièrement depuis le début de l'ère moderne : avec Carthage, Rome, avec les autres pays du Maghrib, de l'Andalousie, des autres pays islamiques, du Califat ottoman, de l'Afrique, de la France, de l'Espagne, de l'ensemble de l'Europe, des Etats-Unis d'Amérique, de l'Asie et du reste du monde, dans tous les domaines. Permanence de sa personnalité et continuité de son Histoire, malgré les vicissitudes de l'Histoire).

COMMUNIQUE

XII[e] Séminaire sur la Pensée Islamique

Le Ministère des Affaires Religieuses organise à Batna, capitale des Aurès, du 04 au 11 chawal 1398 (07 - 14 septembre 1978) le XII[e] Séminaire sur la Pensée Islamique, à l'intention des étudiants (d'Université) aussi bien d'Algérie que d'ailleurs.

Des professeurs (d'Université) et chercheurs du monde musulman et d'ailleurs y sont invités.

Les frais de séjour et de déplacement, à l'intérieur du territoire national, dans le cadre du Séminaire, seront pris en charge par le Ministère. Une contribution symbolique de cinquante dinars algériens sera demandée aux participants. En sont dispensés ceux venant de l'extérieur du pays ou résidant à Batna.

Les candidats devront joindre à leur demande un certificat de scolarité ainsi qu'un certificat médical et une enveloppe (16 x 21) timbrée portant leur adresse.

Les demandes de participation doivent être adressées au Ministère des Affaires Religieuses, Direction de la Recherche Islamique et des Séminaires, Sous-Direction des Séminaires, 4, rue Timgad - Hydra - Alger.

En prenant soin de préciser sur un coin de l'enveloppe la mention : " SEMINAIRE ".

Le dernier délai d'envoi des demandes de participation sera le 24 djoumada II 1398 (31 mai 1978), le cachet de la poste faisant foi.

L'ordre du jour sera comme suit :

1°) Aurès ; hauts faits et hauts lieux : (à travers l'Histoire, dans la région des Aurès : grands jours et moins grands... Les grands événements, champs de leur déroulement, causes et effets, traces et vestiges. Les mesures prises, ou à prendre, pour faire « ressortir » et préserver ces derniers).

